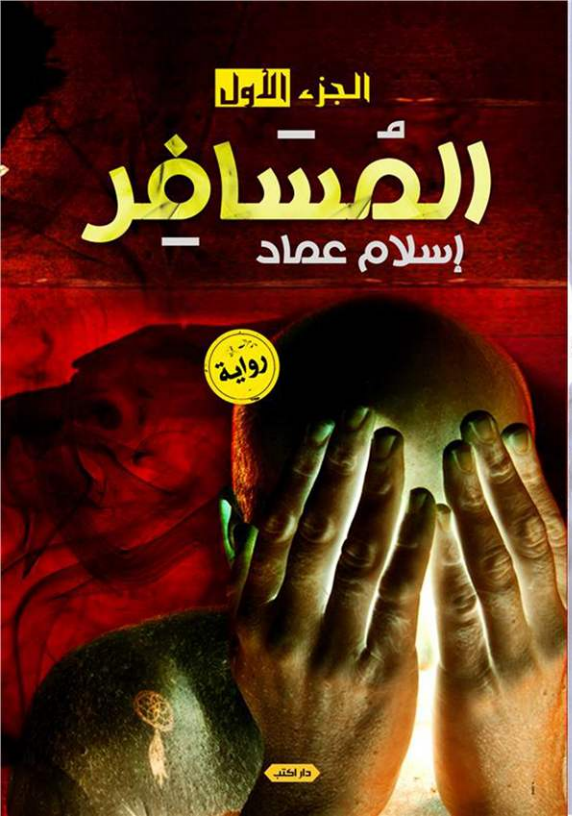

إسلام عماد

المسافر

غلاف: محمد عيد

دار اكتب للنشر والتوزيع

ظللت لفترة فى عدم توازن؛ فلم استطع الإفاقة من صدمة فقدانك. وفى يوم من الأيام كنت جالسًا كالعادة في مكتبي، وأثناء مطالعتى كتابًا من كتبي، انتابني بعض من الشرود، تذكرت جملة قيلت لي منذ سنين عديدة فى أرض بعيدة عن أرضنا، تذكرت اجتماعي بالسيد "ديمتريف" في ذلك القبو المهجور ذى الإضاءة الخافتة، ترددت كلماته في أركان عقلي وكأننى أسمعها الآن:

"... ذلك السر سوف يغير من حياتك إلى الأبد، وأنت الوحيد الذى أراه جديرًا بأن يَعلَمه معي.. وأن تحمل الراية من بعدي إذا توفيت.. فهل ستثبت لى جدارتك بالفعل؟"

امتدت يدى لاشعوريًا إلى درج مكتبي الذى تراكم عليه التراب لسنوات، أولجت المفتاح فى قفله وأدرته لأجد أمامى الأوراق الأولى لبحث السيد "ديمتريف"، ترددتْ كلماته فى ذهني لتتكون بدايات فكرة جنونية في أعماق عقلي، فكرة لم أعلم أنها ستغير حياتي إلى الأبد بالفعل!

سوف أكمل تلك التجربة، سأصنع بنفسى آلة الزمن!

دار اكتب للنشر والتوزيع
DAR OKTOB PUBLISHING HOUSE

المسافر

الجزء الأول

من ثلاثية المسافر

إسلام عماد

رواية

دار اكتب للنشر والتوزيع

شكر وإهداء

شكرًا لكل من قرأتُ له كتابًا.... أفدتني كثيرًا.

شكرًا لعائلتي، وأصدقائي الأعزاء... منكم استلهمتُ تلك الرواية.

شكر خاص لصديق العمر (مصطفى المصري)، وزميلتي الفنانة (سارة الشيخ).

إهداء لكم يا عائلتي الحبيبة، ولك أيها القارئ وأيتها القارئة.

في إحدى ليالي ديسمبر الباردة عام 1985... ارتفع صوت بكاء طفل رضيع بأحد الشوارع الخلفية لحي شبرا، ازدادت شدة البكاء عاليًا بطريقة متزايدة كطريقة الكريشندو التي يؤديها الأوبراليون. كان ذلك بكاءه الأول خارج رحم أمه الدافئ، فلقد تمت عملية الولادة بالبيت بعدما سال ماء الرحم بطريقة مفاجئة منعت أي ترتيبات مسبقة أو أي تجهيزات ممكنة لتلك الولادة المنتظرة بعد سنوات من عقم وتردد على عيادات الأطباء وإحباط متواصل من كلا الوالدين.

ولم تمر دقائق حتى ازدادت حدة البكاء بطريقة غريبة، بل تضاعفت وتنوعت أيضًا؛ لم يكن البكاء آتيًا من الرضيع فقط، بل أمكن وقتها سماع أصوات عديدة لصراخ وعويل نسائي بشكل غير مناسب لظروف هذا الحدث البهيج!

يا للأسف، فلقد توفيت الأم جراء عملية الولادة المنزلية تلك. توفيت، قد تركت صغيرها يعاني شتاء تلك الليلة الباردة وحيدًا..

لقد كان أنا هذا الرضيع... أنا "أدهم عبد الرحمن"، شاب مصري في أواخر العقد الثالث من عمري، لن أسرد تفاصيل أكثر حاليًا، فالصفحات القادمة كافية أن تحكي عني ما لن تعرفوه من أحد سواي. سوف أقص عليكم قصتي، قد تتعجبُ منها، وقد تألفها كأنه أنت!

أحذركم قبل قراءة تلك الصفحات أن تتركوا كل ما تعتقدون بصحته ورائكم، فلقد كنتُ مثلكم، ولكني عرفتُ الحقيقة وتركت كل ما أنا فيه من وهم!

1

تصاعد رنين المنبه بكل استفزاز، وكأنه يُعلِن اعتراضه الشديد على كسلي وسهري المبالغ فيه. أخرسته بلكمة خطّافية بقبضة يدي اليمنى طرحته أرضًا لأحاول بعدها إكمال نومي اللذيذ ثانية، ثم تذكرتُ التزامي بمواعيد العمل، حينها اضطررت متأففًا أن أستيقظ للّحاق بذلك العمل اللعين.

كان الجو ذلك الصباح باردًا بعض الشيء، ولكنه ذلك البرود المحبب الذي يبعث على الارتجاف والانتشاء في نفس الوقت. وبالرغم من انتمائي لفصيلة مواليد شهر ديسمبر المعروف بدرجات الحرارة شديدة الانخفاض إلا أن ذلك لم يجعلني من محبي فصل الشتاء بتاتًا، أنا أميل للصيف بحرارته ودفئه، وكم تكون فرحتي واستمتاعي عندما تلمس الشمس بأناملها الحارة بشرة خدي الأبيض المشرب بالحمرة، تلك البشرة التي ورثتها عن والدتي -رحمها الله- لم أرها في حياتي قط، ولكني رأيت صورها مع والدي -رحمه الله، أيضًا- ...كم كانا سعيدين بالرغم من عدم وجود ابن تحتضنه أيديهم، وسبحان الله! وقت أن جئتُ إلى الدنيا أخيرًا.. رحلت هي وتركتني وحيدًا!

قمت من على سريري متكاسلًا، متجها نحو دورة المياة. قضيت حاجتي ثم اغتسلت وتوضأت وصليت فروضي، بالطبع لا يوجد من يقطن معي تحت سقف هذا البيت ليجهز لي طعامي، لذلك لا يوجد في جدولي اليومي ما يسمّى بالإفطار، ولكن لا مشكلة.. إن قطعتين من الحلوي أو تلك المقرمشات المشبّعة بالزيوت ومكسباتِ الطعم ومستقبلِ مشرق حافل

بالكوليسترول لقادرةٌ على منحي ما يكفي من طاقة للوصول إلى عملي نشيطًا متيقظًا.

احتسيت كوب النسكافيه المعتاد، وأنا أستمع لجزء من بالية "كسارة البندق" الشهيرة للموسيقار الروسي "تشايكوفسكي"، كم أحبُّ تلك المقطوعة! استماعي للموسيقى الكلاسيكية هواية محببة منذ الصغر، كان الفضل الأول والأخير فيها لجدي والد أمي -رحمها الله-هو السبب في جعلي عاشقًا لكلِّ ما هو قديم؛ الموسيقا الكلاسيكية، وقراءة كتب التاريخ، ومشاهدة الأفلام القديمة.. يجالسني فيطوف بحكاياته في أزمنة قديمة فيها الناس أفضل مما هم عليه الآن بكثير.

اكتشفتُ أني قد اندمجت في الموسيقا وأضعت ربع ساعة كاملة من وقتي الثمين، لا سيما أني متأخر بالفعل على موعد العمل. هرعت إلى الشارع لألحق بأتوبيس النقل العام الذي سينقلني إلى محل عملي خلال ساعة كاملة بسبب ازدحام الطرق.

نفس الطريق، نفس المحلات، نفس الزحام.. أغلب وقتنا يضيع في الزحام، كم من ساعاتٍ مرت في إشارة مرور حمراء، أو انتظارًا في طابور من السيارات الخانقة بسبب شجار سخيف بين قائديْ سيارتين لم تلمس إحداهما الأخرى أساسًا! لأشعر أحيانًا أننا كمواطنين مصريين لدى أغلبنا من مخزون وقته الكفايةُ التي تتيح له البحث عن أي سبب ولو تافهًا ليضيع وقته من خلاله، اللهم ارحمنا برحمتك فأنت أرحم الراحمين!

وكالعادة..لم يجد الركاب من حولي في الأتوبيس أفضل من الحديث في شئون السياسة وأحوال البلد لتزجية الوقت الضائع من عمرهم في علبة الصفيح تلك، لكني كالعادة أيضًا كنت جاهزًا...أخرجت سماعات الأذن من جيب بدلتي، وضعتها في أذني، سأحلق في سماء "موتسارت" و"بيتهوفن" بعيدًا عن تلك الفوضى والزحام المبالغ فيه، ستداعب أصابع "شوبان"

و"باخ" أذني المرهفة كما تداعب القطة أطفالها. خذوني بعيدًا من هنا أرجوكم، فأنا لا أطلب إلا السكون والسلام.

بعد ساعة من النشوى والسكينة، اضطررتُ للخروج منها لبدء حياتي اليومية الرتيبة مع زملائي ورؤسائي في العمل. اجتازت قدمي عتبة مبنى المحطة الإذاعية التي أعمل بها، فأنا أعمل مقدمًا في الراديو بإحدى المحطات الإذاعية الخاصة. ما زلتُ في بداية طريقي، ولكن لديّ بعض المستمعين الأوفياء، ويبدو أن ذلك كافيًا بعض الشيء ليقتنع المديرُ باستمرار برنامجي المتواضع. يقبع برنامجي بين كومة من البرامج التي تذيع وتقيّم الأغاني الجديدة، والقديمة، والجديدة التي صارت مع مرور الوقت قديمة، والقديمة التي وجدها البعض قابلة للسماع حاليًا فجعلها تبدو كالجديدة. برنامجي الذي يدور حول موضوعات عديدة مقتبسة من تاريخنا، أتناول تلك الموضوعات مع ضيفي في صورة محاورات خفيفة شيقة، وأنهي الحلقة بتوعية المستمعين بضرورة الاهتمام بالتاريخ؛ فلا مستقبل بدون تاريخ، ولكن هيهات! مَن يسمع لا يصغي، ومن يصغي لا يعتبِر، ومن يعتبِر لا يهتم أحد باعتباره ذلك!

أدلف إلى غرفة الاستراحة فأقابل عم "خالد"، ذلك العامل البسيط طيب القلب الذي نال الشيبُ من رأسه ولكنه لم يقترب من قلبه فظلّ محتفظًا بنقاء القلب وصفاء الروح وكأنه طفل بريء يتفنّن في خدمتنا وإدخال البهجة على قلوبنا، ويقابل من يراه ببشاشةٍ فطرية لا تكلُّفَ فيها ولا رياء. ترتسم البسمة على وجهه بالرغم من وفاة ابنه الوحيد المجند في كمين شرطة منذ فترة ليست بالطويلة؛ لذلك فهو محبوب من جميع العاملين بالمحطة. ذهبت إليه لألقي عليه تحية الصباح كعادتي..

– "ازيك يا عم خالد...عامل ايه يا راجل يا طيب؟"

– "الحمد لله يا أستاذ أدهم...كفاية إننا شفنا حضرتك"

– "يا راجل يا بكاش...فاكرني هصدق كلامك الحلو دا؟"

– "الله وحده يعلم يا أستاذ أدهم بعتبرك في معزة ابني محمود –الله يرحمه–"

– "الله يرحمه يا عم خالد... ابنك مات وهو بيأدي واجبه، واللي قتلوا في الكمين حسابهم عند ربنا، وما ربك بظلام للعبيد"

– "ونعم بالله يا أستاذ أدهم" ثم مسح دمعة فرّت من عينه بسرعة، وأردف قائلًا: "أجهزلك النسكافيه بتاعك زي كل يوم؟"

– أجبته: "أكيد يا عم خالد، دا أنا مش بتمزج إلا من النسكافيه اللي بتعمله بإيديك الحلوين دول"

ابتسم عم "خالد"، واتجه إلى مكانه بالكافيتريا ليبدأ إعداد النسكافيه لي كما طلبت.

اخترت أحد المقاعد الوثيرة الموجودة بالاستراحة واتجهت إليه لأجهز أوراقي استعدادًا لحلقتي التي سيتم تسجيلها بعد ساعة. في حلقة اليوم سوف أستضيف أحد كبار المؤرخين السياسيين المعروفين في الساحة حاليًا ويدعى "محمود الشربيني"، لم أقابله شخصيًا من قبل، ولكني شاهدته في أحد البرامج التليفزيونية من قبل، وبالرغم من محاولات المذيعة الملطخة بالأصباغ وقتها أن تجاريه في الحوار فشلت كل محاولاتها، فقد كان ذلك الرجل صعبًا بحق في المناقشة. يمثّل كلامه الثقيل المحمل بالمعلومات التاريخية المؤكده سلاحًا رادعًا لكل من يفكر في أخذ ناصية الحوار منه. وقتها كم شعرت بالشفقة على تلك المذيعة الشابة التي لا تعرف حتى (متى قمنا

بحرب أكتوبر 1973)، ولكنها بالتأكيد تعلم متى طلقت تلك الفنانة المشهورة زوجها بعد أن علمت بخيانته مع موظفة مكتبه، أو تحفظ كلمات آخر أغنية لذلك المطرب المعروف الذي تتهافت فتيات الفيديو كليب تحت قدميه، بالرغم من أن اكبرهم قد تكون في سن حفيدته!

اليوم ها هو "محمود الشربيني" يأتيني بنفسه ليكون ضيفاً في برنامجي المتواضع.. بالطبع لم يأتِ احترامًا لاسمي أو مكانتي، ولكنه أتى بعد كثير من التوسلات التي بذلها مدير المحطة الأستاذ "ممدوح زهران" من أجل أن يفكر الأستاذ "محمود" فقط في اتخاذ قراره بأن يحضر أو يحجم عن الحضور. لقد كانت الإعلانات أهم ما يفكر فيه الأستاذ "ممدوح"، ووجود الأستاذ "محمود الشربيني" في محطته الإذاعية كفيلٌ بجعل المستمعين على أهبة الاستعداد لسماع حواراته الكلامية مع المحاور الذي يستضيفه، لا ما يقوله في تاريخنا المليء بالأحداث المشوقة. فالمشاهد أو المستمع الآن يهتم بالشجار الذي ينشب بين الضيوف وبعضهم، أو بين الضيوف والمحاور أكثرَ من اهتمامه بالخبر المطروح في الحلقة.. وبالطبع فإن الأستاذ "محمود الشربيني" في تلك النقطة له نصيب الأسد، بل نصيب قطيع من الأسود بأكمله!

قطع حبل أفكاري صوت نحنحة أنثوية، وقبل أن أرفع رأسي لأراها علمت أنها هي، إنها "أروى" حبيبتي وخطيبتي أخيرًا منذ شهرين. إنها الملاك المجسد في هيئة إنسان، هادئة دائمًا، مبتسمة دائمًا، بشرتها بيضاء كالمرمر، وفي عينيها الخضراوين تضطرم نيران أنوثتها، تخفي شعرها الحريري المنسدل تحت حجاب ملتزم زاد من جمالها. كانت تلك "أروى" محبوبتي التي فتحت ثغرها الباسم لتنطق بصوت عذب:

– "ايه اللي واخد عقلك كده يا حبيبي؟"

– "لأ مفيش.. كنت بحضر ورق الحلقة، سيبك أنتِ من الورق وعقلي، قوليها تاني كده والنبي"

قالت "أروى" بدلالٍ: "أقول ايه؟"

اصطنعتُ التوسل وقلت: "والنبي يا آنسة، إلهي ما يوقعك في ضيقة ويجعل لك في كل خطوة ولاد الحلال"

ضحكت "أروى" ضحكتها الطفولية التي تعلم أنها تخلب لُبّي عندما تضحكها، وقالت بصوتٍ خفيض:

"وطي صوتك يا أدهم..خلي بالك احنا في الشغل"

ثم مالت على برأسها، وأكملت:

"حاضر.... يا حبيبي"

نظرتُ في عينيها الخضراوين وقلت: "يااااه...نفسي اسمعها منك على طول، ومسمعش غيرها طول عمري".. أجابتني في عذوبة: "أوعدك هفضل أقولها لحد ما تزهق مني"

أجبتها في سرعة: "أبدًا"

تطلعتْ لي في سعادة.. لأتذكر أول لقاءٍ جمع بيننا.. كنتُ وقتها مجرد خريج حديث بكليه الإعلام، فأشار على عمّي "كمال" بأن أذهب لأستاذ "وجدي رشيد" المدير السابق للمحطة التي أعمل بها حاليًا للالتحاق بوظيفة في محطته الإذاعية وقتها حدثني قائلًا:

– "بص يا أدهم.. أستاذ وجدي دا راجل محترم جدًا.. وصاحبي وحبيبي من أيام الكلية...عاوزك تروحله وتقوله إنك ابن اخويا –الله يرحمه– وهو هيقوم باللازم"

– " بس يا عمي أنا مقبلش إني أتعين بالواسطة واحرم حد تاني من حقه في التوظيف"

أجابني عمي بعصبية: "يا بني متعملش فيها فيلم عربي قديم من اللي أنت بتشوفهم دول.. بلدك دلوقتي أهم حاجة فيها الواسطة، اللي ملهوش واسطة بيتداس تحت الرجلين. عاوز تعيش بين الناس ولا تتداس تحت جزمهم زي أي عقب سجارة خلصانه؟"

لم يمهلني وقتًا للإجابة، وأردف قائلاً: "الحق انزل دلوقتي، السوّاق مستني تحت البيت هيوصلك للشغل"

ذهبت بعد ذلك لأستاذ "وجدي" في المحطة الإذاعية لأجدَ أعدادًا من الشباب في نفس سني، وخمنت مما أرى أن الجميع آتٍ للتقديم في الوظيفة. حينها وسوسَ إليّ الشيطان بأن أستغل اسم عائلتي وأقتحم المكتب لأنال الوظيفة بدون حق، لكني قاومت تلك الأفكار. سأظل على مبدئي مهما حدث، وإن فزت بالوظيفة فسأفوز بها لأني أستحقها لا لأني فرد من عائلة "الحلواني" إحدى أشهر عائلات مصر.

جاء دوري في الصف.. فدخلت إلى غرفة الاختبار لأجد أستاذ "وجدي" أمامي، كان مثالًا بالفعل لشخصية المدير. متوسط الطول، وَخَطَ الشيب فَوْدَيْهِ قليلًا ليعطيانه شكلًا أبويًّا حنونًا، يرتدي بدلة سوداء وربطة عنق زرقاء بلون السماء الصافية، ويبتسم ابتسامة هادئة تكشف عن شخصية واثقة رزينة. أشار إليّ بالجلوس على الكرسي المقابل لمكتبه..فجلست. سألني ما اسمي، فأجبته: "أدهم عبد الرحمن"، سألني بابتسامته الهادئة:

"نفسك في أيه يا أستاذ أدهم؟" اندهشتُ من السؤال، لكني حاولتُ أن أتماسك وأجبت بكل ثقة:

"نفسي أكون واحد من العاملين بمحطة حضرتك"...أجابني بهدوء:

"واشمعني محطتي أنا بالذات يا أستاذ أدهم؟"

جاوبته بصدق: "لأني حاسس إني أقدر أثبت نفسي هنا، ولأني عارف إنكم بتهتموا بالشباب فعلًا مش بالمذيعين اللي خلاص راحت عليهم ولسه ماسكين في كراسيهم"

أحسستُ بنظرة إعجابٍ تلمع في عينيه لوهلة، ثم قال:

"ماشي يا أستاذ أدهم... عاوز من حضرتك تستنى ثواني"، ثم مالَ بجانبه ليتحدث في الدكتافون:

"ابعتيلي اللي بعده في الكشف".. فسمعت صوت السكرتيرة تجيبه بالموافقة.

انتظرتُ ثواني.. لينفرج الباب عن أجمل من رأيت في حياتي، كانت هي، كانت "أروى"..لم أدر وقتها أنني أنظر لمن ستكون الأميرة المتوجه على عرش قلبي. دخلتْ إلى المكتب حاملةً معها أزهار الربيع وزقزقة عصافير الجنة، سألها أستاذ "وجدي" عن اسمها فأجابت بكل رقة:

"أروى عبد المجيد"

أشار إليها بالجلوس وحادثها قليلًا، لم أستمع لحرفٍ من حديثهما، فلقد كنت مشدوهًا لعينيها الخضراوين. رأيت فيهما مروج الأندلس، وحدائقَ بابل، ومزارع بلاد الشام المترامية الأطراف! انتبهتُ فجأةً على صوت أستاذ "وجدي" يناديني قائلًا:

"أستاذ أدهم، المفروض دلوقتي إن حضرتك ضيف للأنسة أروى في برنامجها"..

واتجه لـ"أروى" قائلًا: "اتفضلي حضرتك معاكِ أربع دقايق تسأليه فيها وتبدأي معاه حوار"

ثم قرنَ قوله بالفعل ونظر إلى ساعته، فتسرعت "أروى" ونظرت إليّ وسألتني بكل مرح:

"أهلًا وسهلًا بضيفنا العزيز...ممكن تعرفنا بحضرتك؟"

صمتُّ لمدة ثوانٍ، وأنا عاجز عن الكلام، ثم كَمَنْ يتعلم الكلام قلت: "اسمي.. أدهم..أدهم عبد الرحمن. خريج...خريج إعلام جامعة القاهرة.. دفعة السنة دي"

بعدها حذّرها أستاذ "وجدى" وقال: "باقي 3 دقايق يا آنسة "أروى"، استكملت "أروى" الحوار معي، وكان يبدو عليها أنها تواجه ضغطًا عصبيًا هائلًا... فها هو مغفّل يتسبب في تضييع فرصتها في نيل الوظيفة التي تحلم بها..لم تجد "أروى" وقتًا كافيًا لبدء حوارٍ مفيدٍ بسبب عدم تركيزي وشرودي في عينيها الخضراوين تلك. أعلن أستاذ "وجدي" في النهاية أن وقتها قد نفد، ثم طلب منّا تسليم ملفيّنا إليه على وعد بالاتصال بنا في أقرب وقت. علمنا وقتها أننا لن يتم قبولنا. أعطيناه ملفاتنا في حزنٍ وخرجنا نجر أذيال الخيبة فإذا أستاذ "وجدي" يناديني بصوتٍ عالٍ:

"استنى أنت عندك يا أستاذ أدهم"

نظرتُ مندهشًا إليه، وبفعل لا إرادي نظرتْ "أروى" أيضًا إليه، فردّ عليها:

"لأ اتفضلي أنتِ.. أنا عاوز أستاذ أدهم بس"

نظرتُ إلى "أروى" نظرة دهشة مختلطة بحزن عميق، وأكاد أجزم أني رأيت عينيها تترقرقان بالدموع. قاطعني نداءُ أستاذ "وجدي" للمرة الثانية،

فاضطررت للذهاب إليه مرة ثانية. وخرجتْ "أروى" من المكتب وقد أخذتْ معها كل البهجة والسرور من المكان.

جلستُ بكل خوف أمام أستاذ "وجدي" منتظرًا أولى كلماته. تقطّبَ جبينه، وبدا منغمسًا في تفكيرٍ عميق، ثم فجأة قهقهَ ضاحكًا وارتمى بظهره للوراء قائلًا:

"مش تقول يا بني إنك من عيلة الحلواني، وسايبني امتحن فيك واسألك واكلمك"..ثم أكمل قائلًا:

"تقرب ايه بأه لكمال الحلواني؟" أجبته هامسًا: "كمال الحلواني يبقى عمي"

أكمل ضحكته بصوتٍ عالٍ" ابن الـــ.... كمان طلع عمك.. كمال دا بعتبره أكتر من اخويا من أيام ما كنا لسه في أولى كلية، وياما أكلنا مع بعض عيش وملح وكشري من وسط البلد كمان"

ثم أكمل بعد أن أخذ نفسًا عميقًا:"خلاص أنت كده معانا في المحطة يا أدهم"

قاطعتُه بحزمٍ: "لأ أنا آسف يا أستاذ "وجدي"، أنا مقدرش أتوظف بالطريقة دي..مع كامل احترامي لحضرتك بس أنا عاوز أتوظف في وظيفة بحقي فيها مش بسبب عيلتي"

قاطعني أستاذ "وجدي" تلك المرة قائلًا: "يا بني اصبر بس... أنت من الأول عاجبني وداخل دماغي وحاسس إنك متحمس للشغل. السبب كان في البنت اللي دخلت، معندهاش ثقة في النفس مع أنها أمورة وشكلها اجتماعية"

أجبته قائلًا: "على فكرة أنا السبب إني ضيعت عليها الفرصة دي.. جالي صداع مفاجئ ساعتها ومقدرتش أركز معاها في الإجابة"، ثم أكملت قائلًا: "من فضلك...أنا مش هقدر أوافق فعلًا وأنا عارف إني كنت سبب في ظلم البنت المسكينة دي"

نظر إليّ أستاذ "وجدي" ثم ضحك قائلًا: "ماشي يا سي أدهم.. من أولها شروط! علشان خاطر عمك بس، أنا قررت أعينك أنت والبنت المسكينة دي. ارتحت كده يا سيدي؟"

ابتسمتُ وشكرتُه قائلًا: "شكرًا لحضرتك يا أستاذ وجدي، مش هقدر أنسالك الجميل دا"

فردّ وهو محتفظًا بابتسامته الودودة: "بس متنساش تسلملي ع الواد كمال..وقول له وجدي بيقولك عدي عليه عشان مستنيك في دور طاولة زي زمان"

ضحكتُ وأجبته: "حاضر من عنيا يا أستاذ وجدي، تؤمرني حضرتك بحاجة تانية؟"

ردّ قائلًا: "خلاص كده يا أدهم..وتيجي من أول الأسبوع الجاي عشان تستلم وظيفتك"

شكرته مرة أخرى، وأثناء خروجي من المكتب سمعتُ صوت السكرتيرة يعلن أن باب التقديم قد أغلق، وأن الوظيفة لم تعد شاغرة لأواجه نظرات الحقد المسلطة من عيون الشباب حولي كالأسهم تخترق جسمي وتحوله لمصفاة ممتلئة بالثقوب.

أتذكر ذلك اليوم جيدًا.. فبعد أن خرجت من الشركة طلبت من السائق أن يرحل إلى البيت وأخبرته أني سأستقل أتوبيس النقل العام.

لم أعطه وقتًا ليبدي دهشته من ذلك القرار الغريب حسب وجهة نظره. وبدأت فعلًا بالسير نحو محطة الأتوبيس... جاء الأتوبيس المتجه إلى مدينه نصر فركبته، وجلست في أول مقعد شاغر صادفني في عدم اكتراث بمن حولي.. وكانت المفاجأة بعد ذلك أن وجدت تلك الفتاة "أروى" جالسة أمامي في صف المقاعد التالي لصفي، ويبدو عليها الشرود فلم تلحظني مثلما لم ألحظها. تمتمت في سري "رب صدفة خير من ألف ميعاد"...لحسن حظي لم يمكث الراكب العجوز المجاور لها طويلًا في مكانه ونزل بعد محطتين، فأسرعت أنا للجلوس بجانبها قاطعًا الطريق على فتًى يبدو على ملامحه الخنوثة مما يرتديه من ملابس مستفزة بألوان فاقعة، وشعر مصفف بطريقة لا تجرؤ أي نعجة لديها أدنى ذرة من الكرامة أن تصفف فروتها مثله. تفاجئتْ "أروى" بسرعة جلوسي بجانبها، ثم أدارت وجهها نحوي، وما إن رأتني عرفتني وبدا على ملامحها الغضب وكأنها ستصرخ بوجهي، وقبل أن تنبس بحرف واحد أسرعتُ قائلًا:

"في البداية أنا آسف جدًّا على اللي عملته في المحطة النهارده، كنت تعبان شوية ومن سوء حظك إنك جيتي وقتها مقدرتش أقول كلمتين على بعض ساعتها.. بس دلوقتي بقولك أنا آسف وإنك اتعينتي في الوظيفة يا آنسة "أروى".

صمتت لثوانٍ غير مُصدّقةٍ لما سمعته، بعدها بدأت ملامحها في التحول للسرور... ثم ابتسمت قائلة:

"يعني كده أنا بقيت مذيعة في المحطة؟؟"

أجبتها: "مذيعة تحت التمرين زي حالاتي...بس آه...تقدري تقولي إنك بقيتي مذيعة في المحطة".

أحسست بوجهها وكأنه صار صورة لشخصيات الكرتون من فرط السعادة..ووجدتها تتكلم بكل راحة: "الحمدلله...أصلك مش عارف أنا كان نفسي ابقى مذيعة في الراديو من امتى، دانا كنت أقعد عيلتي كلها قدامي واعمل معاهم حوارات وهمية كأني مذيعة وكده"

أجبتها مصطنعًا عدم التصديق: "يا سلاااام؟"

أجابتني بصدق: "آه والله.. حتى كنت أمسك فرشاة الشعر و..." أخذت في استكمال حديثها بكل أريحية، وشردتُ أنا في عينيها الخضراوين...وحينها أحسست بشرارة الحب الأولى تشعل النار في قلبي.

"أدهم"، مالك؟ أعادني نداء "أروى" إلى أرض الواقع بعد أن شردت في ذكرياتي قليلًا.

عدت لأجدها تخبرني أن عم "خالد" انتهى من إعداد كوب النسكافيه، ثم قالت:

– " ايه اللي واخد عقلك تاني؟" أجبتها:

– "لأ مفيش مشكلة، كنت بفتكر بس أول مرة اتقابلنا ازاي"

ثم أكملتُ بحنانٍ: "فاكرة حصل ايه يومها يا حبيبتي؟"

ضحكت ضحكتها الملائكية، ثم أردفت: "طبعًا..وهو دا يوم يتنسي..كنت مدهول دهولة سودا زي دلوقتي كده"، ثم ضحكتْ ضحكة طويلة، فأجبتها بضيقٍ طفولي: "مدهول!! ماشي يا ستي كتر خيرك".

أجابتني بدلالٍ:

"ايه يا أدهم! بهزر معاك....طب أقولك بأه.. بعشق دهولتك دي، ارتحت يا سيدي؟"

أجبتها في حب" ارتحت يا سيدة سيدي".

ضحكت ثانية، ثم قالت: "طب يالا عشان الضيف قرّب يوصل ولازم يبجي يلاقيك أسد قدامه، دا محمود الشربيني مش أي حد"...

قلت لها في ثقة:

"على نفسه...أنا النهارده هوريه مين هو أدهم عبد الرحمن.. يا ويله يا سواد ليله"

***

2

دلفت لأستوديو "6" حيث يتم تسجيل برنامجي الإذاعي "لمحات تاريخية"، وما إن دخلت حتى وجدت الأستوديو خاليًا! تبًا...لم يأت "محمود الشربيني" بعد. كم رغبتُ في أن أجعله ينتظرني طويلًا، ولكني الآن مضطر لانتظاره. كانت هذه البداية.. نقطة لصالحه قبل أن تبدأ حتى المباراة، ولكن هيهات سوف يرى مني ما لم يستطع أي مذيع أو مقدم أن يفعله معه. طيلة عمري أكره المتكبرين والمغرورين، ومن وجهة نظري أسوأ المتكبرين هم من يتكبرون بعلمهم على الآخرين بدلًا من أن يشاركوهم هذا العلم مهما كان مقداره، كم سيكون علمه مقارنةً بالعلوم اللانهائية الموجودة في الكون؟ لن يستطيع بشري أن يجمع علوم الكون في جوانب عقله، أي خلايا رمادية تستطيع اختزان علوم الإنسانية الممتدة طوال كل تلك القرون؟ بل إن الإنسان عاجز عن معرفة أدق التفاصيل عن الجسم البشري نفسه، عاجز عن معرفة كينونته، ما دليله على أنه هو؟ سقراط قالها في أحد دروسه.. "اعرف نفسك"، فهل نعلم أنفسنا حقًا؟ هل نعلم ما بعقلنا الباطن من رغبات دفينة ومشاعر متطرفة؟ بعيدًا عن أننا لا نعلم بدقة عدد خلايا الجسم أو حتى كيفية تكوين تلك الخلايا، كلها أشياء لا يعلمها إلا الله؛ فلما التكبر بما نظن أننا نعلمه؟!

قطع تأملي صوتُ طرقاتٍ على الباب.. اعتدلت وانتبهت في مجلسي، وأجبت "ادخل". فوجئت أنه عم "خالد"، فتنهدت قائلًا: "خضيتني يا عم خالد.. افتكرتك الضيف... حد جه بره؟" أجابني بالنفي، فطلبت منه أن

يرحل ووعدته بأن أطلب المشروبات وقت مجيء الضيف، شكرني وذهب إلى الكافيتريا.

انتظرت لمدة ربع ساعة كاملة، قضيتها في الاستماع للبث المباشر للمحطة، ودندنة ألحان الأغاني التي يتم بثها، وبعد أن انقضت تلك الدقائق، وجدت من يطرق الباب طرقتين ثقيلتين، فأجبت بخمول: "ادخل يا عم خالد". فُتح الباب فوجدته "محمود الشربيني" بسترته الكحلية المعتادة وربطة عنقه البنية، ومعه أستاذ "ممدوح" رئيس المحطة. دلف "محمود" بكل هدوء وثبات إلى الأستوديو، ويبدو على ملامحه التأفف، وكأنه يخطو بأقدامه إلى بالوعةٍ أو ما شابه، فلم يحاول أن يرسم أي ملامح اهتمام على وجهه الذي يشبه وجه الحصان. وبجانبه أستاذ "ممدوح" كتاجر العبيد الذي يعرض سباياه للزبائن.

"منورنا والله يا محمود بيه.. النهارده يوم تاريخي يستحق أن يُسطر في تاريخ القناة المتواضع" قالها "ممدوح" بنفاق واضح. لم يبد على الضيف أي بادرة تأثر أو تغيُّر في ملامحه التي كستها التجاعيد، فقد كان نفاق أستاذ "ممدوح" واضحًا للعيان يراه الأعمى نفسه! ولقد كانت تلك طريقة أستاذ "ممدوح" دائمًا... النفاق والموالسة لمن هو أعلى منه شأنًا، كم أكره هذا الكائن، وكم أكرهه منذ أيام عملي الأولى في تلك المحطة منذ أن رأيته يرمق "أروى" بنظراتٍ قذرة من وراء زجاج نظارته السميكة، حينها لم يمنعني من تحطيم تلك النظارة على وجهه غير احترامي لوجود أستاذ "وجدي" معنا.

اتجه الضيف إلى مكانه..وأسرعت أنا إلى مكاني بعد أن رحبت به.. وأجاب ترحيبي بكلمات مقتضبة، حاولت أن أكسر حاجز الجليد فيما بيننا، فرحبت به مرة أخرى...فردّ بكل عجرفة:

"خلاص مش شغلانة.. عاوزين نخلص عشان ورايا مواعيد تانية أهم من دا".

ابتلعت الإهانة بصعوبة. ها هو يواصل تسجيل النقاط، وما زالت المباراة لم تبدأ بعد. رغبت في الرد عليه بأن أسأله إذن ما هو سبب وجوده هنا إذا لم يكن برنامجي بتلك الأهمية عنده، لكن كظمتُ غيظي منتظرًا الوقت المناسب. سوف يأتي وقت الرد عندما يبدأ البرنامج، وأقوم بإحراجه على الهواء مباشرة وعلى مسمع من جميع متابعي البرنامج في أنحاء الجمهورية.

سألته عمّا يريد أن يشربه، فأجاب بكل صَلَفٍ: "مبشربش حاجة قبل الشغل". اضطررت لابتلاع سخافته في التعامل. لا تقلق.. سوف يأتي لحظة الرد على كل تلك السخافات. أفهمته بسرعة موضوع الحلقة، وطريقة إدارة الحوار، والخطوط العريضة للحلقة. ظل يستمع إليّ لمدة دقيقتين بكل ضجر حتى حان موعد بداية البرنامج واستمعنا لموسيقا المقدمة المأخوذة من إحدى سيمفونيات الموسيقار الكبير "عمر خيرت"، لقد أطلق الحكم صافرة البداية... فالويل لك يا "محمود"!!

دنوت بفمي من الميكروفون، وبدأت ديباجة البرنامج قائلًا:

"أهلًا وسهلًا بيكم مستمعينا الأعزاء في برنامجكم لمحات تاريخية. النهارده يشرفنا في الأستوديو المؤرخ التاريخي الكبير الأستاذ محمود الشربتلي.. عفوًا محمود الشربيني"

هبّ "محمود الشربيني" صامتًا في مقعده ونظر إليّ شزرًا، ولكنه لم ينطق وانتظر دوره في الكلام حانقًا. كتمت ضحكاتي بداخلي، ها أنا أسجل

أول نقطة لي في المباراة. لقد انتظرت تلك اللحظة طويلًا.. والآن حان وقتي أن أمطر شباكه بالأهداف...أكملت حديثي قائلًا:

"موضوع حلقتنا النهارده عن حاجة بقالها فترة كبيرة منتشرة في الأوساط العلمية المتعلقة بدراسة التاريخ، وقدرت إنها توصل لكتير من أفراد الشعب في مجتمعنا الحالي، وفي المجتمعات الأجنبية برضو.. النهارده بنتكلم عن الموضوع المثار بخصوص أصل الأهرام.. هل اللي بناها أجدادنا الفراعنة العظماء فعلًا زي ماحنا عارفين ومتأكدين، ولا اللي بناها اليهود زي ما هم بيروجوا للإشاعة دي دلوقت؟ ونسأل ضيفنا الأستاذ محمود بخصوص الموضوع دا... تعليق حضرتك أيه يا أستاذ محمود؟"

بدأ "محمود الشربيني" كلامه قائلًا بكل فخامة:

"أحب أعرّف نفسي الأول.. أنا أستاذ محمود الشربيني، محلل تاريخي وسياسي وكبير أساتذة قسم التاريخ بجامعة (....)، وحاصل على العديد من شهادات الدكتوراة الفخرية من جامعات عريقة عديدة كجامعة (هارفرد) و(ييل) الأمريكيتين على سبيل المثال، وأعمل حاليًا كمؤرخ للوقائع التاريخية المتعلقة بالتاريخ المصري، وجاري الإعداد لكتابي الخامس بعنوان "تاريخ الدولة الوسطى في مصر الفرعونية.. دراسة وتحليل" وفيه أكشف أسرارًا لم تُعرف من قبل عن تلك الفترة الهامة من تاريخ مصرنا الحبيبة".

قاطعته قائلًا: "بالتأكيد حضرتك أشهر من نار على علم... دلوقتي بالنسبة لموضوع الأهرام.. هل فعلًا الأهرام بناها اليهود زي ما بيقولوا؟؟"

ردّ بكل حنق: "بعد إذنك متقاطعنيش تاني وأنا بتكلم"

أجبته مصطنعًا الأسف: "مش قصدي يا أستاذ محمود، بس المستمعين متشوقين إنهم يعرفوا رأي حضرتك الهام في الموضوع الخطير دا".. قلتها بكل واقعية وما زالت ضحكاتي تتردد بداخلي.. خطتي تسير على ما يرام، لن أتركه ينال ما يريده مني. أكمل "محمود" كلامه غاضبًا وقد تخلّى عن لغته الفصحى المنمقة: "بالنسبة لموضوع الأهرام... أولًا أحب أقول إن التاريخ يُكتب بأيدي المنتصرين، وأغلب تاريخنا اللي احنا متأكدين منه، وبنردده بكل جعجعة في كل مكان كان فيه فترات عديدة تم تحريفها وتزويرها. كان في زمن الفراعنة أوقات كتيرة مظلمة، مش طول الوقت كانوا بيبنوا في مسلات وأهرام ومعابد، كان فيه أوقات كلها ظلم وجبروت وفساد.. ومصر عرفت أوقات تعرضت فيها البلاد للنفوذ الأجنبي، فحكمها غرباء عنها، تمثلوا في مجموعات متتالية من الحكام الليبيين والنوبيين والآشوريين وأخيرًا الفرس..."

سألته بكل تحدٍّ متعمدًا مقاطعته مرة أخرى: "يعني دا معناه إن الشائعة ممكن تكون صحيحة؟"

أجاب: "لأ طبعاً..لأن أي أحد بيقرأ في التاريخ حيشوف إن الصهاينة ياما افتروا على التاريخ بافتراءات كاذبة، وعندهم قدرة كبيرة على تشويه الحقائق لخدمة مصالحهم القذرة. أنا هنا بتكلم عن الصهاينة مش اليهود؛ لأن اليهود أهل دين سماوي زيهم زينا وزي الإخوة المسيحيين، لكن الصهاينة أخطر بكثير، لأنهم بيحاولوا يشوهوا التاريخ ويحولوه لصالحهم، بيحاولوا يقنعوا العالم إن الصهيونية واليهودية شيء واحد...والموضوع دا ياما اتكلم فيه أستاذنا الكبير "عبد الوهاب المسيري" في كتبه شديدة الأهمية عن الصهيونية العالمية وحركات الصهيونية الكبرى..."

التقط أنفاسه، ثم أكمل قائلًا: "وموضوع بناء اليهود للأهرام كعبيد دا نوع من التشويه اللي ما زالوا بيمارسوه في حق التاريخ، فبعد ما قدروا إنهم يضخموا من موضوع الهولوكوست، قدروا يقنعوا ناس كتير في بلاد بره إنهم فعلًا بُناة الأهرام، إنما كل الدلائل بتقول غير كده. أغلب الحقائق التاريخية بتقول: إن الأهرامات اتبنت خلال الفترة من2630 إلي1530 قبل الميلاد، يعني قبل ما ييجي اليهود إلى مصر أصلًا بمئات السنين، وإن اليهود لما جاءوا إلى مصر، كانوا جماعات من الرعاة، ولم يكن ليهم أدنى معرفة بعلوم العمارة أو الهندسة أو الفلك اللي استخدمها الفراعنة في تشييد وبناء الأهرامات، دا غير كتير وكتير من الشواهد اللي تثبت كده.. زي مثلًا... "

قاطعتُه للمرة الثالثة متعمدًا: "بعد إذنك يا أستاذ محمود نروح لفاصل سريع ونرجع تاني نكمل كلامنا في الموضوع الخطير دا.. خليكوا معانا، وانتظرونا خلال دقائق... بعـــــــــــد الفاصل"

أنهيت الحوار بسرعة وضغطت زر غلق الميكروفون..ليبدأ "محمود الشربيني" في الصياح:

"أنت ازاي يا بني آدم تكلمني بالطريقة دي، أنت متعرفش أنا مين؟ آه صح شكلك متعرفنيش، مش عارف تقرا اسمي صح؟! أنتو فاكرين نفسكوا محطة معروفة بجد ولا أيه؟! دانتو اللي بيسمعكو يادوبك قرايب عمال المحطة بس".

ارتفع صوته بالصياح مما استرعى انتباه العاملين خارج الأستوديو، ووجدت أستاذ "ممدوح" يدلف مسرعًا داخل الأستوديو وعلى وجهه أقصى أمارات الهلع والتوتر. اتجه إلى "محمود" سريعًا محاولًا تهدئته بكلامه المعسول الموالس:"جرى أيه يا أستاذ محمود، أعصابك...حصل ايه قوللي؟"

أجابه "محمود" بكل غضب: "اتفضل شوف الأستاذ اللي جايبه يعمل الحوار معايا...مش عارف هو جايب مين في برنامجه الحقير دا"

غضبت لتلك الكلمة أي غضب، وأسرعتُ بالرد: "احترم نفسك يا أستاذ محمود...أنت هنا في مكان عمل"

اصفرّ وجه أستاذ "ممدوح"، وبادر "محمود" بالرد غاضبًا: "هو فين العمل دا؟ قاعد كل شوية تقاطعني، وغلطت في اسمي.. تغلط في اسمي!! أنا اسمي دا كفاية يتقال في أي جامعه عربية أو أجنبية تلاقي العميد ذات نفسه جاي مخصوص ليا"

أجاب أستاذ "ممدوح" وهو يهز رأسه موافقًا: "أكيد أكيد يا أستاذ محمود، بس هدي أعصابك أنت بس. تعالى اتفضل عندي في مكتبي اشرب حاجة تروق بيها نفسك، وأوعدك أنا بنفسي هعاقب الولد دا"

ذهب الاثنان إلى مكتب أستاذ "ممدوح" بينما تسمرت واقفًا في مكاني يملؤني الغضب والحنق، لقد كنت أنا الطرف الأقوى طوال الحلقة، ولكن أتى ذلك السخيف "ممدوح" ليفسد كل ما فعلته...كم أكرهه فعلًا!!

دلفت "أروى" إلى الاستوديو مسرعةً تجاهي...

– "ايه اللي حصل يا أدهم؟ أيه كل الدوشة والزعيق دا؟"

– " لا مفيش حاجة.. سوء تفاهم مع اللي اسمه محمود دا...أنا كنت مجهز نفسي لكده من الأول، هو راجل مغرور أساسًا وبيحب يتنطط على الخلق، وأنتِ عارفة أنا مش بطيق الناس اللي زيه كده"

أجابتني "أروى" بكل هدوء: "أيوة عارفة يا حبيبي، بس أنت في شغل هنا لازم تتعلم تمسك أعصابك مهما كان اللي قدامك مستفز، مينفعش تتنرفز عليه...مش كده برضو؟"

أقنعتني بكلماتها وإن كانت قليلة... انتبهت أنني خلال حماسي لتلك الحلقة قد تعديت قواعد المهنية، وأخطأت في حقي أولًا قبل أن أخطئ في حق المحطة. هدأتُ قليلًا بعد كلمات "أروى"، والتفتُ إليها قائلًا:

"شكرًا يا حبيبتي... مش عارف من غير كلامك دا كنت هعمل ايه"
نظرت إليّ بحنانٍ وقالت:

" كنت هتروح في ستين داهية"، ثم ابتسمت فبادلتها الابتسامة.

قطع تلك اللحظة الرومانسية دخول عم "خالد" لينبأني بأن الأستاذ "ممدوح" يرغب في ملاقاتي بمكتبه في أسرع وقت، واختتم كلامه بجملته المعهودة: "يجعله خير ياذن الله يا أستاذ أدهم".

نظرتْ إليّ "أروى" بكل قلق...فأجبتها ساخرًا: "كنتي بتقولي هروح في ستين داهية... اديني رايح اهو".

***

3

تسارعت خطواتي عابرًا تلك الردهة المؤدية لمكتب الأستاذ "ممدوح"، لم أكن مسرعًا بسبب الخوف من توبيخه لي أو لشيء من هذا القبيل، فأنا أعلم مدى كرهه لي وتعنته الواضح أحيانًا في كثير من معاملاته معي أو مع "أروى"، لكنني لم أرغب في جعل ما حدث بيني وبين "محمود الشربيني" سببًا في إساءة معاملتي في المحطة. وصلت لمكتبه في دقائق معدودة، وما إن خطوت باتجاه المكتب حتى شاهدت وجه مديرة مكتبه وقد اعتراها القلق.. فهمت ما أنا مقبل عليه، بَسْمَلْتُ في سري وطرقت باب مكتبه.

"ادخل"... ارتفع صوت الأستاذ "ممدوح" آذنًا لي بالدخول.

دلفت إلى مكتبه وتوقفت أمامه منتظرًا سيل إهاناته المزعجة، نظر إليّ بحدة ثم بدأ كلامه قائلًا:

– ممكن تفسر لي ايه اللي حصل في الأستوديو دا؟؟

أجبته بكل برود: "مفيش حاجة حصلت يا أستاذ ممدوح.. الراجل شكله مش عارف طريقة التعامل في الراديو بتبقى ازاي.. مش هينفع يتكلم كتير في الراديو خصوصًا إننا عندنا فواصل إعلانية، وأصلًا وقت البرنامج كله على بعضه نص ساعه بس".

لم أجد حججًا أقوى مما قلت، وبالرغم من علمي أنها حجج واهية لن تصمد في نقاش مطول، لكني صممت على رأيي هذا.

أجابني بعصبية: "بس هو اشتكى من إنك قريت اسمه غلط، وإنك كنت بتقاطعه في الكلام...ليه بأه؟" أكملت بنفس البرود: "غلطة الاسم دي كانت بسبب الورق اللي اتقدم لي.. الخط مكانش واضح بس أنا لحقت نفسي، وقلت الاسم صح بعدها. أما مقاطعته في الكلام دي معتقدش أنها غلط ولا حرام"

بدأ الأستاذ "ممدوح" في التراجع..وظهر ذلك في نبرة صوته التي بدأت في الاستكانة، لم أمنع نفسي وقتها من تخيله وكأنه أحد التجار اليهود من أفلام الأبيض والأسود القديمة بطريقة كلامهم ونظراتهم المستكينة التي تتصنع الوداعة وتخفي وراءها تلًا من النفاق والخبث. كم كان الشبه كبيرًا فعلًا...أمسكت نفسي عن الضحك بصعوبة وأنا أستمع لما يقوله:

– بس دلوقتي الراجل هددني بأنه هيرفع قضية على المحطة لشعوره بالإهانة الشديدة، وغير كده إن موقفنا بقى زي الزفت...ممكن الراجل دا بعلاقاته يسبب لنا قلق احنا في غنى عنه.

كنت قد وصلت لدرجة من الملل تمنعني من مواصلة الحوار مع ذلك الكائن القميء. أنهيت حوارنا بجملة واحدة.."خلاص شوفو تحبوا تعملوا ايه واعملوه.. أنا عن نفسي مش شايف إني غلطت معاه في حاجة".. أسرع "ممدوح" في الرد بكل شماته:

– طبعًا لازم تتعاقب علشان متكررش اللي حصل دا مع ضيف تاني... مخصوم منك أسبوع ومفيش حلقة الأسبوع الجاي، نبقى نحط بدلها ساعة كوكتيل أغاني خفيفة وخلاص...يا ريت تتعلم من اللي حصل دا".

تسبب قراره التعسفي ذلك في مضاعفة كراهيتي له وبغضي لشخصيته الدنيئة. لم أنس كيفية وصوله لكرسي مدير المحطة. بعد أن نلت وظيفتي أنا و"أروى" في المحطة، لم يدم أكثر من ستة أشهر حتى داهمَ أستاذ "وجدي"

مرضًا شديدًا تسبب في إصابته بشلل تام..كم حزننا جميعًا في المحطة لما حدث وقتها، فقد كان الأستاذ "وجدي" كالأب الحنون لجميع العاملين بالمحطة، وكان مداومًا في السؤال على من يمرض، ويعين من يحتاج للإعانة، وكان من كبار المساهمين في حفل زفاف "محمود" -رحمه الله- ابن عم "خالد"، وقتها بكى عم "خالد" من الامتنان وظلّ يردد الدعوات بالبركة والهناء لأستاذ "وجدي" وعائلته الكريمة. وبعد أن شُلّ الأستاذ "وجدي" اضطر مجلس ادارة المحطة أن يختار من يتولى منصب مدير المحطة بدلًا من الأستاذ "وجدي"، لم يكن "ممدوح" هو الخيار الأول، بل كان أحد أعضاء مجلس الإدارة هو الأوفر حظًا بذلك المنصب لما فيه من مميزات وإمكانيات تؤهله لتولي ذلك المنصب الهام إلا أن نفاق "ممدوح" وقدراته العالية في التزلف والتقرب من ذوي المناصب الهامة بكلامه المعسول وهداياه الفاخرة جعله الأجدر بنيل المنصب، وتلك هي آفة بلدنا.. المحسوبية والنفاق.

انتهى حواري مع الأستاذ "ممدوح" واستأذنت منه للانصراف. خرجت من مكتبه متبرمًا مما حدث، ولكني سرعان ما حاولت الابتسام حيث وجدت "أروى" منتظرة بجانب مديرة المكتب تتحادثان حديثًا خفيفًا، وما إن رأتني "أروى" حتى أنهت حوارها بابتسامة مع مديرة المكتب واتجهت إليّ مهرولة:

- حصل ايه جوّا طمنّي عليك؟

- متقلقيش...حوار وخلص خلاص.

- لأ قوللي بجد.. شكلك زعلان.

- والله مفيش يا أروى...مجرد خصم كام يوم على جزاء بسيط.

ارتسم على وجه "أروى" الحزن، وأردفت:

– خلاص متزعلش، ربنا على الظالم والمفتري...وأنت بعد كده حاول تبقى تمسك أعصابك كويس.

حاولت تغيير دفة الحديث، فابتسمتُ قائلًا:

" خلاص سيبك من اللي حصل...أكلتي ولا لسه؟"

ضحكتْ وقالت: "أكل ايه دلوقتي ..هوا وقته؟"

أجبتها ضاحكًا أيضًا: "بالعكس دا هو وقته أوي.. أنا بحب آكل بعد ما مديري يهزأني ويخصم مني كده"

ابتسمت "أروى" فتكونت غمازتيها المحببتين إلى قلبي، ثم أجابت:

– ماشي أنا موافقة..أنا فعلًا مأكلتش من الصبح... ياللا بينا

ذهبنا إلى الكافيتريا لتناول الشطائر، فقابلنا عم "خالد" بوجهه البشوش كالعادة...وسألني بكل لهفة:

" هاه يا أستاذ أدهم..عمل معاك ايه الظالم اللي اسمه ممدوح دا؟"

أجبته: "متقلقش يا عم خالد...محدش يقدر يعمل لي حاجة"

ضحكنا جميعًا، وأكمل كلامه قائلًا: "مش قلقان عليك يا أستاذ أدهم، أنا قلقان على اللي اسمه ممدوح...الظلم أخرته وحشة، الراجل دا هيشوف أيام سودا..وقول عم خالد قال"، ثم سكت وأنهى كلامه كالعادة بنفس الجملة المحببة إليه: "يجعله خير بإذن الله يا أستاذ أدهم".. شكرته على الشطائر ثم غادرت أنا و"أروى" لنستقل الحافلة.

***

بعد انتظار دام أكثر من ربع ساعة بسبب عدم وجود مواصلات خالية والزحام الخانق، استطعنا أخيرًا ركوب الأتوبيس. منذ أول مرة ركبت مع

أروى فيها الأتوبيس بالصدفة تكررت الصدف.. وسرعان ما علم كل منا أن تلك الصدف ليس أغلبها بترتيب القدر، ولكنها تكون أحيانًا بترتيب أحدنا لمقابلة الآخر، حتي صارحتها في يوم من الأيام بحقيقة مشاعري تجاهها. ومنذ ذلك الحين صرنا معًا في كل مكان وكل وقت. ومنذ حوالي شهرين استطعت أن أقابل والدها لأتقدم لـــــــ"أروى" وأخطبها رسميًا. في ذلك اليوم جلست أنا وعمي"كمال" بالرغم من عدم تقبله قليلًا لذلك الارتباط في البداية، وقابلنا خالها وأمها حيث إن والدها توفي منذ أن كانت طفلة في الثامنة من عمرها... وهذه نقطة مشتركة أخرى بيننا، فأنا أيضًا يتيم الأبوين.. فبعد أن ماتت أمي، اضطر والدي -رحمه الله- وبعد ضغوط عديدة من أعمامي وجدتي للزواج من إحدى أقاربه لتربيتي، وظلت زوجة أبي بالفعل خيرَ راعٍ لي حتى ماتت مع والدي في حادثة انقلاب سيارتهم، وأنا ابن العاشرة من عمري.

- سرحان في ايه يا أدهم؟

قطع سؤال "أروى" سيل الذكريات لأجيبها:

- بفتكر حاجة جميلة كده...فاكرة لما قعدت جنبك أول مرة في الأتوبيس؟

ابتسمت "أروى"، وقالت:

"أنت النهاردة طالبه معاك ذكريات أوي...أيوة يا سيدي فاكرة برضو...ومن ساعتها مش عارفة اخلص منك"

ضحكت وأجبتها في هدوء: "وأوعدك مش هتعرفي تخلصي مني"

أجابت بكل رقة، وقد نظرت إلي بعينيها الخضراوين: "ومين قالك إني عاوزة اخلص منك؟"

تنحنحت وقلت: "احم..طب مش وقتها رومانسية احنا في الأتوبيس، وأنتِ شايفة ما شاء الله الناس راكبين فوق بعضهم، وكل واحد رامي ودنه في حجر اللي جنبه"

أجابتني بهزة رأس دلالة على التوكيد، ثم أضافت: "فعلًا...حاجة مقرفة.. تحس إننا في برطمان مخلل ومقفول علينا! أنا خايفة ألاقي لمونة معصفرة واقفة جنبي"

مثّلتُ الاستنكار، وقلت لها باشمئزاز مصطنع: " مخلل! الملافظ سعد يا أروى".

ضحكنا معًا وأخذنا نتبادل النقاشات الجانبية الهادئة..ومن حولنا الزحام في الأتوبيس قد صار أشبه بيوم الحشر، وكأن الراكبين جميعهم يقلهم ملاك الموت المتمثل في سائق الأتوبيس لينال كل منا جزاءه!

بعد برهة من الزمن صعدت امرأة مسنة تبيع أكياس المناديل، وتنادي بصوتٍ رقيقٍ عسى أن يعطف عليها أحدٌ ببعض العملات الورقية أو المعدنية... بالفعل نالت رزقها من بعض الركاب ثم نزلت بكل هدوء كما صعدت.

ارتفع صوت أحد الركاب خلفي قائلًا:

"يا دي النيلة... دي خامس واحدة تطلع تشحت في نص ساعة، دول ولا كأنهم بيبدلوا مع بعض"

ليجيبه راكب آخر:

"لأ.. وكلهم بتوع مناديل! خلاص مفيش حاجة ناقصانا غير المناديل يعني؟"

انتهى الراكب الآخر من جملته ليجيب عليه-على سبيل المشاركة- راكب ثالث يستند على طرف المقعد المواجه لمقعدي:

"الناس كلها يا باشا بقت بتبيع مناديل، عشان لا مؤاخذة الوساخة كترت ف البلد دي"

ثم انتبه لوجود "أروى" بجانبي، فأكمل: "لا مؤاخذة يا آنسة..كلمة وطلعت غلط"

قلت بصوت خافض من بين أسناني: "لا مؤاخذة أيه بأه مانت قلتها".

ثم بدأت النقاشات تدور بين ركاب الأتوبيس وكأنها إحدى تلك الحوارات المجتمعية التي يستمر في إقامتها الساسة ورجال الدولة، ولم نر من بعد أي حوار من تلك الحوارات حلولًا منطقية أو سبلًا لحل المشكلة المطروحة بتلك الحوارات. هكذا هي السياسة في بلدنا.. نقاشات، وتسويفات، ومشاكل لا تُحل. بدأت المناقشات في الاحتدام حول اختلاف وجهات الرأي السياسية بين ركاب الأتوبيس من مؤيد أو معارض لقضية سياسية ما، وكل طرف منهم يبرر لقضيته أنها الأصح.

حمدت الله أن بيت "أروى" قد اقترب، فذلك معناه اقترابي أنا الآخر من النزول من الأتوبيس والابتعاد عن كل تلك المهاترات والمشاحنات التي لا ولن تنتهي.

أوصلت "أروى" إلى منزلها وتأكدت من وصولها بسلام، ثم أكملت طريقي سيرًا إلى شقتي وما إن دخلت إلى الشقة حتى ارتميتُ من الإرهاق على أقرب مقعد، وداهمني النوم حتى صحوت مساءً على أسوأ خبر سمعته في حياتي.

***

4

ارتفع رنين الهاتف المحمول ليخرجني من سباتي العميق. هرعت للهاتف ونظرت إلى شاشته لأجد رقمًا لم أراه من قبل. ضغطت على زر الرد وقد انتابني القلق... سألت:

– ألو...مين معايا؟

رد المتصل بصوت رخيم:

– أيوه يا أدهم...معاك أستاذ عبد الله المحامي وصديق جدك الحاج جمال.

ازدادت ضربات قلبي بمجرد سماعي اسم جدي الحبيب الذي افترقت عنه منذ سنوات عديدة... سألته بقلق:

– آه...أهلًا بحضرتك يا متر.. خير، حصل أيه؟

سكت أستاذ "عبد الله" قليلًا..فازداد قلقي، ثم أجابني بصوت شابه الحزن:

– جدك يا أدهم.. تعيش أنت.

***

لا أذكر ماذا أصابني وقتها..كل ذكرياتي عن تلك اللحظة كانت رؤيتي للهاتف ملقًى على الارض وقد انتابني ما يشبه الشلل التام، عاجز

عن الحركة، عاجز عن التفكير، عاجز عن النطق، عاجز عن كل ما يمنحني لقب كائن حي! لم أصدق الخبر في البداية.. انعزلت في عالم آخر يسوده الصمت المطلق.. صدمة رهيبة.

وما زال صوت الأستاذ "عبد الله" يتردد في الهاتف.

– الو....الو....رد عليا يا أدهم أرجوك....الووو .....

***

"فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ"

ارتفع صوت المقرئ أثناء ترتيله لكلمات القران الكريم، وتتابعت آيات سورة الفجر على لسانه وكأنها درر منثورة. غالبت دموعي وحاولت منع نفسي من البكاء أثناء جلوسي في عزاء جدي الراحل. أتذكر بعدما استفقت من الصدمة وتناولت الهاتف بأيدٍ مرتجفة؛ لأرد بصوت مخنوق على أستاذ "عبد الله":

– أيوه يا أستاذ عبد الله...أنا معاك.

ردّ على الأستاذ "عبد الله" بكل حزن:

– البقاء لله يا أدهم...جدك كان راجل طيب، وربنا هيرحمه برحمته الواسعة.

سالت دموعي عند سماع الفعل "كان" مقترنًا بجدي. ما زلت غير مقتنع وغير مصدق. إنني بكابوس أسود.. بالتأكيد هو كابوس، يجب أن أستفيق حالًا...سألت المحامي وأنا في غير وعيي.

– هو جدي مات ازاي يا أستاذ عبد الله؟

أجابني: "جدك –الله يرحمه– كان مسافر في رحلة بالباخرة للجزائر، أنت عارفه بيعشق البحر من زمان، وبيحب السفر البحري عن أي نوع سفر تاني.. باخرته المفروض اتحركت من مصر امبارح بالليل، والنهاردة الصبح للأسف وصل لي خبر غرق الباخرة ناحية سواحل ليبيا".

سألته بلهفة: "طب ما هو ممكن يكون عايش ؟!"

أجابني بأسًى: "للأسف يا أدهم...مش لاقيين أي حد ناجي من الباخرة.. الباخرة غرقت بالكامل ومحدش قدر يهرب من اللي حصل، البقاء لله يا بني."

تحطم الأمل الوحيد بالنسبة لي وقتها..واستمر الأستاذ "عبد الله" في كلامه الممزوج بالحزن.

– ترتيبات العزا وكل حاجة أنا متكفل بيها. جدك كان زي اخويا بالظبط، وكان بيننا عشرة عمر...الله يرحمه ويحسن إليه.

انتهت المكالمة وانتهى معها جزء من روحي كان قد غالبني الحنين إليه طوال عشر سنوات.. عشر سنوات بأكملها تم إبعادي عن جدي بأوامر من أعمامي وجدتي.

"كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا"

ما زال القارئ مستمرًا في تلاوته، وما زلت أغالب دموعي، وأحاول تعويض ذاتي بتذكر تلك السنوات الجميلة التي لبثت فيها مع جدي العزيز.

كانت عائلة والدي –رحمه الله– من العائلات الثرية بحق، تلك العائلات التي يمتلك أفقرها ثروة صغيرة تقارب الملايين من الجنيهات؛ لذلك كان حتميًا رفض عائلة أبي لقراره بالزواج من أمي –رحمها الله– المولودة بحي شبرا لعائلة من الطبقة المتوسطة، ولكن أبي –رحمه الله– أحب

والدتي حقًا، ولم يهتم بقرار رفضهم، وأصر على قراره بالزواج من أمي. وبالفعل تزوجها وأنجبوني، وللأسف توفيت أمي بعدها مباشرة، لأعيش مع أبي وحدنا بدون امرأة ترعانا، فكان واجبًا عليه الزواج ليجد من يرعاني في تلك الفترة الحرجة. وقتها أصرتْ جدتي أن يتزوج ابنه خالته التي أرادت تزويجها له من قبل، ولكنه كان يقابل رغبتها بالرفض التام، وبسبب الظرف الجديد الذي صار فيه؛ تقبّل وضعه ووافق على الزواج من أجل تربيتي. وقامت بالفعل تلك السيدة بتربيتي حتي جاء ذلك اليوم المشئوم الذي انقلبت فيه سيارة أبي وزوجته معه أثناء سفرهم على إحدى الطرق السريعة في ليلة ممطرة من شتاء ديسمبر، وكأن الصدفة المدهشة أن يتوفى والدي في نفس شهر وفاة والدتي؛ لذلك أشعر بالكآبة فعلًا عندما يأتي الشتاء، فكل ما أتذكره عنه هو الموت وفقدان الأب والأم، لكن الله عوضني خيرَ عوض، فلقد انتقلتُ لبيت جدي والد أمي، الذي أصر على تربيتي، ووقتها بالفعل اخترت المكوث معه..كم كانت أيامًا جميلة تلك التي قضيتها في كنف جدي العزيز. رحمك الله يا جدي!

يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ

ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً

فَادْخُلِي فِي عِبَادِي

وَادْخُلِي جَنَّتِي

صدق الله العظيم.... الفاتحة.

انتهى المقرئ من تلاوة القرآن، وانتهينا من تلاوة الفاتحة، واستعد الجميع للمغادرة. وقفت في صف المعزين متقبلًا العزاء والشد على الأيدي من أقاربي وأصدقائي الأعزاء وجيران جدي -رحمه الله-. حاولت

التماسك والثبات، وكم كان ذلك صعبًا. لقد صرت وحيدًا بالفعل. كم كنت أفكر في رؤية جدي ودائمًا ما كان يمنعني أعمامي وجدتي من ذلك بعد ما حدث، وكم كنت أقضي الليالي أفكر في ذلك اليوم الذي أخذني عمي"كمال" فيه من بيت جدي.. المرة الأخيرة التي أرى فيها جدي، وتلمس قدماي أرضية منزله القديم.

انتظر الأستاذ "عبد الله" لنهاية العزاء، حتى خلا المكان من الضيوف، ثم اقترب بجانبي ووضع يده على كتفي وقال:

– شد حيلك يا أدهم يا بني...اعتبرني زي جدك بالظبط، أي حاجة عاوزها أطلبها مني من غير كسوف.

شكرته وأكدت له على ثباتي وتماسكي، فرد على قائلًا:

– إن شاء الله هعدي عليك كمان أسبوعين تكون استقريت فيهم شوية علشان عندي ليك حاجة مهمة لازم تاخدها، دي كانت وصية جدك الله يرحمه.

اندهشت من ذلك، ولكني أجبته بالموافقة: "تنور يا أستاذ عبد الله، البيت بيتك".

سألني الأستاذ "عبد الله": "ابقى قوللي عنوانك فين علشان أعرف أجيلك".

أجبته قائلًا: "العنوان سهل.. حضرتك تنزل في مدينة نصر وتسأل عن..."، ثم شردت لبرهة من الزمن...وصمتُّ، ثم قلت له:

" ولا لأ... أنا قررت إني هعيش في شقة جدي القديمة بشبرا"

أجابني أستاذ "عبد الله": "على بركة الله، إن شاء الله أجيلك كمان أسبوعين زي ما اتفقنا".

صافحني ورحل.. لأفكر في قراري السريع الذي اتخذته.. ما كان سبب ذلك القرار؟ لا أعلم حقًا، ولكنني شعرت بالحنين إلى بيت جدي القديم. ربما كان قرارًا صائبًا في النهاية. سوف أعود لبيت جدي أخيرًا.

***

5

حزمت حقائبي وانتهيت من إعداد كل ما يمكن أن أحتاجه للانتقال إلى بيت جدي القديم -رحمه الله-. أبلغت عمي أنني قد اتخذت ذلك القرار، وأنه لا رجعه فيه، يكفي اغترابي لعشر سنوات عن جدي الراحل بسبب بعض الخلافات بين العائلتين، واجه قراري بغضب عارم، لكنني لم أعد طفلًا صغيرًا بعد الآن.

وصلت إلى بيت جدي القديم بأحد المناطق الداخلية بحي شبرا.. أقف مشدوهًا أمام الباب الخشبي العتيق لذلك البيت الذي لم تطأ قدماي أرضه منذ عشر سنوات.. عشر سنوات كاملة لم أر فيها ذلك البيت بعد أن كان ملجئي وملاذي، لم أر فيها وجه جدي يستودعني قبل نزولي إلى المدرسة، أو وجهه ضاحكًا فاتحًا ذراعيه أثناء عودتي منها. كل تلك الذكريات الجميلة تذكرتها بمجرد وقوفي أمام باب البيت، مددت يدي إلى جيبي وأخرجت منه المفتاح.. ذلك المفتاح الذي ظللت محتفظًا به طوال العشر سنوات ربما أعود يومًا، وها قد جاء هذا اليوم، ولكنه جاء بعد أن رحل جدي عن عالمنا.

أدرت المفتاح في ثقب الباب، فانفتح أمامي كاشفًا عن ردهة البيت، ذلك المكان الذي طالما لهوتُ به، تخطوه قدماي الآن وأنا رجل بالغ رحلتْ عنه طفولته منذ سنين تاركةً بعض الذكريات اللطيفة، وبعض الذكريات المؤلمة كذلك!

كانت الحالة العامة للبيت جيدة، وذلك لأن جدي ظل ساكنًا بالبيت حتى فترة أسبوع مضت، فلم أجد ترابًا كثيفًا أو ما شابه. بعض الصناديق

فقط كانت ملقاة هنا وهناك، لكن باقي البيت لم أشعر فيه بأي ذرة إهمال أو فوضى.. رحمك الله يا جدي، كنت مثالًا في النظام والترتيب، تكره الفوضى أيما كره، وتعشق النظام كعشق النبات لقطرات الماء.

ألقيتُ حقائبي في مدخل الردهة، وأمامي يمتد المنزل بمساحته الواسعة وغرفاته الأربع؛ غرفتيْ النوم على اليسار، وغرفة الاستقبال على اليمين، وغرفة مكتب جدي في المنتصف. وقفت متأملًا لباب المكتب متذكرًا رؤية جدي جالسًا على مكتبه مدونًا لتجاربه الفيزيائية، ثم يراني ناظرًا إليه وصامتًا في رهبة فيبتسم ويترك ما يكتبه من أجل مجالستي والتحدث معي. كم كانت أحاديثه مشوقة، يحكي لي عن بلاد أخرى لم أراها وعن أحداث حدثت منذ مئات السنين فكأني أراها بعينيّ الصغيرتين. سقاني جدي حب التاريخ منذ صغري، وبالرغم من كونه عالمًا فيزيائيًا خبيرًا في مجاله إلا أن ذلك لم يمنعه من عشق التاريخ والتعمق فيه وكثرة قراءاته حتى تفوّق في درايته بالتاريخ على كثير من الخبراء والدارسين. أتذكر في يومٍ من الأيام جلس معي يحكي لي إحدى حكاياته:

– تعرف يا أدهم...أنا طول عمري بحب التاريخ، من وأنا قدك كده. كنت أقرأ عن التاريخ أيام زمان، وأتخيل إني وسطهم وإني واحد من اللي حاربوا مع صلاح الدين ودخلنا القدس، أو أرجع لأيام فتح مصر ويستقبلني أهل مصر الأقباط وسط جيش عمرو بن العاص.. تاريخنا جميل أوي.. بس للأسف مين يقدّر كده ولا مين يهتم!

ثم يميل لي ضاحكًا:

– أنا والدي كان يتضايق أوي من حبي للتاريخ دا..وكان دايمًا عاوزني اطلع عالم كبير في الفيزيا، وأنا حققت له رغبته وكنت دايمًا متفوق في مجالي، بس عمري ما قدرت انسى التاريخ، اللي ينسى تاريخه يا أدهم..ميقدرش يصنع مستقبله.

كنت ألتهم كلماته التهامًا في شوق، بالرغم من صغر سني وقتها إلا أني كنت قادرًا على فهم ما يقول فهمًا تامًّا، وظللت معه لسنوات عديدة أصغي لحكاياته المشوقة، حتي صار التاريخ بالنسبة لي تراثًا مقدسًا وجب الحفاظ عليه والاهتمام به ما حييت.

فتحت باب مكتبه وتأملت المكتبة الضخمة التي احتلت جدارًا كاملًا من السقف حتي الأرضية. أتذكر دهشتي عند رؤيتها لأول مرة، وقتها سألت جدي بكل براءة:

– أنت قريت كل الكتب دي يا جدو؟؟ امتى وازاي؟

يبتسم جدي ويربت على رأسي، ثم يجيب في هدوء:

– لما تبقى قدي في السن، ويبقي شعرك أبيض زي شعرى هيكون عدا عليك وقت كبير أوي يكفيك تقرا الكتب دي وقدها كمان مرتين.

أبتسم وأنظر إليه في تحدٍّ طفولي، ثم أقول في ثقة:

– أوعدك إني هبدأ أقراهم من دلوقتي، وهخلصهم قبل ما ابقي قدك.

ثم اتجهت لأول كتاب يصل لمستوي يدي وسحبته، ثم قرأت عنوانه:

"نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" لـ"أبو عبد الله محمد الإدريسي"، لم أفهم حرفًا من عنوانه ولكن أعجبني غلافه السميك المزدان بالنقوش الذهبية الجميلة..وعندما قلّبت صفحاته أعجبتني الرسوم الملحقة بكثير من الكلمات المكتوبة على صفحات ذلك الكتاب. فهِم جدي ما أفعله، فضحك كثيرًا واحتضنني وأخذ يداعبني قائلًا:

– أنت لو مسكت كل كتاب واتفرجت على الصور يبقى المكتبة دي هتخلص في يومين.

ضحكنا معا وتركت الكتاب لأتفرغ لمداعبته واللعب معه.

أنظر الآن إلى تلك المكتبة، لأجد عينيي تنحدر منها الدموع رغمًا عني. اتجهت إلى المكتبة وانحنيت بجسدي حتي أصل إلى رفها الأسفل، بحثت عنه حتي وجدته، نفس الكتاب، نفس الغلاف السميك المزدان بالنقوش الذهبية لم ينطفئ لونها الذهبي بعد.. ولكن ما انطفأ هو ذكراه الجميلة إلا أنها تحتفظ ببعض من وهجها الدافئ في قلبي وعقلي.

رنّ هاتفي المحمول بغتةً لينتزعني من تلك اللحظة المؤثرة.

"مش عارف ليه... متونس بيكي وكأنك من دمي، على راحتي معاكي وكأنك أمي مش عارف ليه"

علمت أنها "أروى" من قبل أن أرد.. لقد خصصت لها تلك النغمة التي تترجم كل ما أشعر به تجاهها، ضغطت على زر الرد لينبعث صوت "أروى" الهادئ من الهاتف:"الو...ازيك يا أدهم دلوقتي؟"

رددت بهدوء مماثل محاولًا ألا يظهر تأثري في الهاتف: "الحمد لله يا أروى.. الحمد لله"

– وصلت البيت خلاص؟

– آه تمام.. لسه واصل من عشر دقايق بس.

– طب وايه الأخبار؟

– البيت لسه زي ما هو متغيرش.. يادوبك شوية تراب بسيط بسبب الكام يوم اللي فاتوا دول..مش مشكلة

– خلاص أنا هعدي عليك بكرة الصبح أساعدك في توضيب البيت.. مش هينفع توضبه لوحدك وأنت كده.

– لأ متقلقيش يا أروى... الموضوع مش محتاج تعبك معايا...ربنا يخليكِ ليا.

– متقولش كده يا أدهم...أنا بكرة إن شاء الله الصبح هكون عندك... مليني العنوان وأنا بكرة هتلاقيني قدامك.

أيقنت أن "أروى" لن تغير رأيها... كم هي عنيدة، ولكنني أحب عنادها ذلك.

أمليتها العنوان، ثم أنهينا المكالمة.

أخرجتني مكالمة "أروى" من سيل الذكريات العنيف الذي غرقت فيه حتي الأذن، ولكنني أعلم أن ذلك السيل سيستمر كثيرًا وكثيرًا، فكل رقعة من ذلك البيت القديم لي فيها ذكريات ستطرق أبوابي بالتأكيد.

***

في الصباح التالى.. أتت "أروى" بالفعل. طرقت الباب بيدها الرقيقة ففتحته لها، ليطالعني وجهها المشرق دائمًا، حتى وان ارتسم بعض الحزن على وجهها، فإنها تظل محتفظة بجمالها الفتان. ظللت واقفًا لفترة..فسألتني "أروى" بكل دهشة:

– أنت هتسيبني على الباب كده ولا ايه؟

انتبهت أنني بالفعل كنت واقفًا في مدخل الباب مما يمنعها من الدخول، فأجبتها بكل إحراج:

– لأ خالص مش قصدى.. أنا بس حبيت اتملى بجمال وشك اللي بقالي كتير مشفتهوش.

ابتسمت "أروى"، واحمرّ خدها قائلة:

– دايمًا بتعرف تضحك عليّ بكلامك دا، خلاص كفاية هزار. احنا ورانا شغل.

وقطبت جبينها بشكل طفولي مصطنعة التركيز. ابتسمت رغمًا عني. مجرد رؤيتي لـــــ"أروى" كان كافيًا للتسرية عن نفسي بعض الشيء بدأنا بتجهيز الغرف أولًا. لم يأخذ ذلك منّا أي وقت، فلقد كانت الغرفة الأولى التي كان ينام بها جدي الراحل نظيفة ومرتبة بعناية، أما الغرفة الأخرى فيبدو أنها لم تستعمل منذ فترة طويلة، ربما منذ أن رحلت عن البيت؛ لذلك كانت الأكثر تأثرًا بالتراب، ولكن لم يبدو عليها الإهمال كالعادة. بعد انتهائنا من توضيب الغرفتين استرحت قليلًا أنا و"أروى"، تحادثنا بخصوص العمل وبعض الشئون الأخرى. أخبرتني "أروى" بأنها استطاعت أن تحصل لي على إذنٍ بإجازة لمدة أسبوعين مراعاةً لظروفي الحالية. أخبرتني بغيظ "ممدوح" الشديد أثناء إعطائها هذا الإذن، لم أبالِ بذلك.. فأنا و"ممدوح" ندّان إلى الأبد، ولا سبيل للمحبة بيننا، ثم أوصلتْ إليّ تعازي عم "خالد" الحارة، ووصفت لي حزنه الشديد بعدما علم بخبر وفاة جدي وكم الأدعية التي دعوها لجدي بالرحمة والمغفرة وحسن الجزاء، كذلك أوصلت إليّ تعازي والدتها ودعائها لجدي. شكرتها على ذلك... وأثناء جلوسنا رنّ هاتفي المحمول، نظرت للشاشة فوجدت رقم الأستاذ "عبد الله" المحامي مرتسمًا على الشاشة، اعتدلت في مجلسي ورددت قائلًا:

– الو..السلام عليكم يا أستاذ عبد الله

– عليكم السلام يا أدهم...ازيك يا بني دلوقتي؟

– تمام الحمد لله.

–الحمد لله...أنا قولت أفكرك بمعادنا إن شاء الله.. فاضي الخميس الجاي؟

– آه أكيد يا أستاذ عبد الله... تنورني.

– طيب تمام يا بني..إن شاء الله يوم الخميس بعد صلاة العشا هكون عندك.

– بيتك ومطرحك يا أستاذ عبد الله.

– ماشي يا بني..السلام عليكم.

– عليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

أغلقت الهاتف ونظرت إلى "أروى" في تساؤل: "مين دا يا أدهم؟"

أجبتها: "دا أستاذ عبد الله المحامي بتاع جدي –الله يرحمه–. كان قاللي إنه عاوز ييجي يوم الخميس الجاي علشان معاه حاجة مهمة لازم يسلمها لي".

سألتني "أروى" في قلق: "حاجة ايه دي؟؟"

أجبتها في حيرة: "مش عاوز يقوللي لحد دلوقتي.. أديني هشوف يوم الخميس عاوز مني ايه"

ردت عليّ: "ماشي...ياللا بينا نكمل توضيب...هانت كلها اوضة المكتب بس وخلاص"

نهضنا معًا باتجاه غرفة مكتب جدي لنكمل تنظيف البيت، ولأكمل أنا ذكرياتي الجميلة.

دخلنا إلى مكتب جدي.. بدأنا في إزالة الأتربة عن أرفف المكتبة الضخمة..وأبدت "أروى" اندهاشها وإعجابها بكمية الكتب القيمة الموجودة بالمكتبة، جاوبتها بكل بساطة:

– جدو كان بيقرا في كل المجالات، وكان بيهتم أوي بالكتب القديمة وأمهات الكتب، ولما كان بيحكي لي عن الحاجات اللي قراها كنت بفضل نايه في اللي بيقوله بالساعات.

أجابتني بنبرة شابها الحزن: "يا بختك بيه...الله يرحمه ويحسن إليه. بس شكله كان بيحبك أوي"، واتجهت للمكتب لتمسك ببرواز صغير فيه صورة فوتوغرافية تجمعني أنا وجدي" أنت شكلك كان أمور أوي وأنت صغير. واضح عليكم السعادة مع بعض"، أجبتها وقد تذكرت اليوم الذي التُقطت فيه تلك الصورة.

– آه...دي كانت خروجة لينا مع بعض في القلعة، كان بيحب يوديني الأماكن الأثرية أوي، وياما رحنا مع بعض لمناطق عمري ما كنت أروحها لو مكنتش معاه... روحنا القلعة، ومساجد مصر القديمة، المتحف المصري، المتحف الحربي، دا حتى في مرة سافرنا للإسكندرية وودالي قلعه فايتباي...وعمري ما انسى رحلة عمرنا... يوم ما سافرنا للأقصر وأسوان...أجمل أيام حياتي.

اتجهت إلى "أروى" لأجدها تمسح إحدى الدموع التي خرجت من عيني دون قصد...قالت في تأثر:

– الله يرحمه يا أدهم... دلوقتي هو في مكان أحسن من اللي احنا فيه بكتير.

ثم أمسكت بيدي وقبلتَها... احتويتها في صدرى، ومالت برأسها على كتفي ظللنا واقفين لبرهة، ثم قلت لها في هدوء:

– أروى يا حبيبتى...احنا لسه مخلصناش المكتب.

***

بعد أن أزلنا التراب من فوق أرفف المكتبة وسطح المكتب، وجدنا بعض الصناديق القديمة. اتجهت إليها وفتحت أحدها فوجدت ما أدهشني.

انتبهت "أروى" لدهشتي، فاتجهت إليّ مسرعةً.

– مالك؟؟ ايه اللي حصل يا أدهم.

دسست يدي في الصندوق لأخرج لها وسامًا حربيًا قديمًا. يبدو أنه لبلد أوروبي ما. بذلك الصقر المجنح فاردًا جناحيه في مستوى أفقي، ثم أخرجت بعدها خوذة حربية قديمة أيضًا نُقشت عليها رسوم لأسود مجنحة وكائنات أسطورية، بالإضافة لعديد من المقتنيات التي تمثل نفس القيمة... رموز تاريخية.

سألتني "أروى" في غرابة:

– ايه الحاجات دي؟؟ جدك كان بيمثل في فيلم تاريخي ولا ايه؟

نظرتُ إليها في شرود، وقلت ببطء: "لأ...دا مش حاجات تقليد. دي آثار بجد!!"

***

6

ظللنا لبرهة نحاول استكشاف تلك المقتنيات، وما زلت على رأيي أنها حقيقية بالفعل. لا أدري كيف استطاع جدي الحصول على تلك القطع؟! لا أتذكر رؤيتها حتى منذ كنت مع جدي تحت سقف هذا البيت، تكاثرت الأسئلة في عقلي، و"أروى" تقلب القطع في يدها وتنظر إليها من كل جانب؛ علّها تجد ما يشير لمكان الصنع أو ما يثبت زيفها، قلت لها في قلقٍ: "متحاوليش يا أروى.. حقيقية فعلًا"

– يا أدهم عرفت منين؟ أكيد مكتوب عليها "صنع في الصين" استنى أشوف بس.

أجبتها في نفاد صبر وقد تكاثرت الشكوك في نفسي: "صدقيني أنا متأكد"

أجابت في سرعة: "عرفت منين؟؟ أنت خبير آثار عشان تقول كده؟"

أثارت جملتها بنفسي شيئًا.. تذكرت كيف يمكنني التأكد من حقيقة تلك القطع... هرعت لهاتفي المحمول وبدأت في طلب الرقم. انتبهت "أروى" لذلك بعد ثوانٍ، هرعت هي الأخرى تجاهي تسألني عمّا أفعل، أشرت إليها بالصمت مؤقتًا، بدأتُ المكالمة قائلًا:

– ألو... ازيك يا صبحي؟

رد عليّ صديقي "صبحي" مستفسرًا عن حالي الآن.. أكملت معه الحديث متوترًا:

– تمام يا صاحبي.. الحمد لله على كل شئ. معلش يا صبحي كنت محتاجك في خدمة مستعجلة كده. تقدر تبقى تعدي عليّا كمان شوية في البيت القديم؟ آه اللي في شبرا.. ماشي.. فاكر العنوان؟ طيب تمام.. تسلملي يا حبيبي.. مستنيك بأه...سلام.

أغلقت الهاتف وقد بدا على وجهي الارتياح، سألتني "أروى" في فضول:

– مين صبحي دا يا أدهم؟

أجبتها: " دا واحد من أعز صحابي القدام من أيام ما كنت هنا في شبرا"

سألتني وقد بدا أنها لم تفهم الصلة: "طيب ايه علاقة دا بالآثار المزيفة دي؟"

أجبت بسرعة: "أولًا: دي مش مزيفة، ثانيًا: صبحي دا يبقى خريج آثار جامعة القاهرة. دا أكتر واحد أقدر أعرف منه الحاجات دي حقيقية فعلًا ولا لأ"

مطّت "أروى" شفتيها وقالت: "ماشي... لما نشوف، بس أنا مصرة إنهم مزيفين".

أجبتها بقلق: "أدينا هنعرف كمان شوية يا أروى"

***

غادرت "أروى" البيت مع وعد بلقاء قريب، وجلستُ على أريكة الصالة منتظرًا صديقي"صبحي". أخرجت العلبة الموجود بها القطع الاثرية ووضعتها خلف الأريكة. بعد ساعة، رنّ جرس الباب معلنًا عن وصول "صبحي"...اتجهتُ للباب وفتحته مستقبلًا صديقي القديم. احتضنني

وواساني على وفاة جدي، شكرته وأرشدته لطريق الصالون. جلسنا وبدأت حواري معه قائلًا:

– منور يا صبحي...تشرب ايه الأول؟

أجابني "صبحي" بتلقائية: "والله لسه شارب قبل ما انزل يا أدهم... ريح نفسك بس"

أصررت على موقفي وانتهى ذلك بإعدادي الشاي لكلينا. جلسنا نحتسي الشاي الدافئ بكل استمتاع، سألني "صبحي" في اهتمام عن سبب طلبي إياه، فاعتدلت في مجلسي وبدأت في الشرح.

"دلوقتي بعد ما جدي اتوفى.. أنا قررت آجي أسكن هنا.. من شوية وأنا بوضب أوضة المكتب لقيت علبة قديمة فيها حاجات كده"

أثار الموضوع اهتمامه فسألني بفضول: "حاجات ايه؟"

أجبته بكل ثبات: "قطع أثرية".

قطب "صبحي" جبينه وقد بدا الاهتمام فعلًا على وجهه: "المممم.. آثار!! طب ما هي ممكن تكون متقلدة؟"

أجبته نافيًا: "لأ أنا متأكد شكلها فعلًا حقيقي. ثواني أروح أجيبهالك".

ذهبت للصالة لأحضر العلبة، عدت إليه لأجده قد انتهى من شرب الشاي وبدأ في إشعال سيجارة.

– أنت يا بني لسه فيك العادة الهباب دي؟

أجاب "صبحي" ضاحكًا: "معلش يا عم أدهم.. أنت عارف لازم سيجارة علشان اركز في الكلام التقيل دا"

قمت لفتح النافذة جلبًا للهواء.. كم أكره السجائر، قلت لـ"صبحي" مازحًا:

– كفاية واحدة بس... مش قاعدين في قهوة احنا.

بدأت في فتح العلبة ومال "صبحي" برأسه تجاهها. في بطء أخرجت أول قطعة وهي الوسام الحربي القديم، ناولته لـ"صبحي" بكل حرص، نظر إليه في تركيز، وأخذ يقلبه في يديه لدقائق.. أجابني:

–فعلًا شكله حقيقي...أعتقد إنه نيشان من أيام الحرب العالمية. بس جدك جابه ازاي دا؟

أجبته: "والله ما اعرف...مانا علشان كده بسألك. هل الحاجات دي بيحصل فيها متاجرة؟"

رد قائلًا: "أغلب الحاجات اللي بيحصل فيها متاجرة بتكون آثار فرعونية أو إسلامية، أغلبها حاجات متعلقة بحضارات مصر، لكن الحتة دي ممكن تكون جاية من برة. طب مش ممكن يكون جدك لقاها في صحاري العلمين وكده، المناطق دي فيها حاجات من مخلفات الحرب العالمية كتير؟"

لم يخطر في بالي ذلك فعلًا..ربما وجدها جدي في إحدى أسفاره ورحلاته سواء في مصر أو خارجها. اعلم جيدًا عشق جدي الراحل للتاريخ، ولا بد أن يحتفظ بتلك الذكرى إذا وجده، لكن ماذا أقول عن باقي القطع؟ إنها أشبه بمجموعة تحف لجامعٍ شغوفٍ للآثار. حاولت إرجاء التفكير في تلك الخواطر لما بعد رحيل "صبحي". أكملت إخراج القطع، أعطيت لـ"صبحي" القطعة الثانية، الخوذة الحربية. تناولها في انبهارٍ وبدأ يفعل بها ما فعل بالوسام، لكن هذه المرة طال الوقت حتى وصل لخمس دقائق، بعدها أردف في قلق مختلط بالدهشة:

– دي بأه أنا متأكد إنها أصلية...الخوذة روعة... أعتقد من عصر الدولة البطلمية في مصر. بس غريبة، النقوش عليها واضحة وكأنها معمولة من كام سنة مش من كام قرن!!

أثارت تلك النقطة اهتمامي كثيرًا..سألته في عدم فهم: "ازاي مش أنتا بتقول إنها من أيام الدولة البطلمية؟"

أجابني مؤكدًا: "أكيد، لكن الخوذة سليمة جدًّا.. أغلب آثار الفترة دي تآكل منها جزء، لكن دي كويسة أوي! دا دليل ممكن يخليها مزورة، بس بصراحة لو مزورة يبقى اللي زورها دا فنان.. التفاصيل متقنة جدًّا جدًّا"

ثم أكمل وقد بدا عليه الحيرة فأخذ يلمس طرف ذقنه كعادته عند شعوره بالقلق: "بصراحة يا أدهم، خبرتي متقدرش تحكم على الحتت دي إنها حقيقية ولا مضروبة...أنا عندي فكرة"، أجبته: "قول يا عم العبقري"

أردف قائلًا: "أنا ممكن أوريها للدكتور رئيس القسم عندنا.. الراجل دا موسوعة تاريخية أثرية، ودا أكتر واحد يقدر يساعدنا في الموضوع دا، بس هاخد الحاجات دي ازاي كده معايا؟"

أجبته في سرعة: "وأنت ليه تاخدها؟ صورها كويس وابقى اديله الصور يشوفها"

أجاب غير مقتنع: "لأ صعب، لازم الأصل. الصور مش هتوضح الحاجات أوي".

جاءه مني الرد سريعًا: "مقدرش اطلع الحاجات دي برة البيت يا صبحي. صورها كويس واديله الصور، مش مشكلة أنا مش مستعجل على الحاجات دي، ومش طالب رأي علمي بحت. أنا عاوز أعرف بس هل الحاجات دي حقيقية فعلًا ولا مزورة، مجرد تأكيد لحاجة في دماغي بس"

أجابني وقد رضخ بالأمر: "خلاص ماشي.. اللي تشوفه يا أدهم". وبدأ في تصوير القطع بكاميرا هاتفه ذي الدقة الفائقة، بعد أن انتهى من تصوير جميع تفاصيل وجوانب القطعتين، سألني: "طب فيه حاجات تانية ولا خلاص كده؟"

أجبته: "لسه فيه كمان ييجي عشر حتت على الأقل، بس كفاية دول دلوقتي"

أشار برأسه موافقًا، ثم استأذن للرحيل لانشغاله بموعد آخر بعد نصف ساعة، وطمأنني بأنه سيخبرني بالنتائج خلال يومين على الأكثر.. شكرته كثيرًا ورافقته حتي خرج من البيت، لأذهب أنا بعدها للنوم، فغدًا يوم حافل.

***

صحوت مبكرًا في اليوم الثاني.. بعد كوب النسكافيه الدافئ، ذهبت إلى مكتبة جدي لأطالع بعض الكتب، وجدت أن كثيرًا من الكتب قد تم إضافتها بعد أن رحلت عن هنا، بعض منها من أمهات الكتب التي يعشقها جدي، وبعضها كتب حديثة نسبيًا، أجزاء من موسوعات عن علم الفيزياء، كتب عن نظريات فلكية، وأخرى عن تاريخ الدول والحضارات والشعوب، كتب في اللغات الأجنبية والقديمة. رحمك الله يا جدي، كم كنت عظيمًا! لم أرَ في حياتي شخصًا مثلك في أخلاقك وفي رُقيك في التعامل مع من حولك، ثقافتك الواسعة كانت خير إرث ورثته منك، ليتني أكون جزءًا ولو بسيطًا مما كنت فيه... رحمك الله يا جدي!

قضيت في مكتب جدي أغلب ساعات النهار، لا يقطع مطالعتي للكتب إلا القيام لتناول شطيرة أو الذهاب لقضاء الحاجة. جاءني هاتف من "أروى" تستعلم عمّا حدث بالأمس، أخبرتها مُلخّصًا ما حدث، أبدت

موافقتها على قراري بعدم خروج القطع من البيت. وتمنت لي التوفيق... اشكر الله دائمًا على وجود "أروى" بجانبي، إنسانة يصعب أن أجد مثلها في زماننا هذا، مثقفة ومحترمة وعلى خُلق ودين حقيقي. بالفعل لا أدري كيف كنت سأعبر تلك الفترة بدون وجودها بجانبي.

انتهى المؤذن من صلاة العشاء، أديت الصلاة والحمد لله، ثم بدأت في تجهيز الصالون استعدادًا لحضور المحامي الأستاذ "عبد الله"...بالفعل بعد حوالي ربع ساعة. سمعت طرقاته على باب المنزل، استقبلته خير استقبال وأدخلته لغرفة الصالون، شدّ انتباهي إحضاره لصندوقٍ متوسط الحجم.

جلس الأستاذ "عبد الله" على أحد المقاعد الوثيرة للصالون، بعد السلام والمجاملات المعتادة بدأ الأستاذ "عبد الله" كلامه بجدية: "دلوقتي يا أدهم..زي ما أنت عارف غير إني صديق لجدك الله يرحمه.. أنا كنت المحامي الشخصي بتاعه. جدك كان راجل في حاله، عمره ما رفع قضية على حد، وعمره ما كان بتاع مشاكل. علشان كده اللي بيننا عمره ما كان علاقة شغل، اعتبره علاقة ثقة بين صديقين أوفياء"

أجبته مؤكدًا:"طبعًا يا أستاذ عبد الله، أنا أفتكر جدي -الله يرحمه- دايمًا كان يشكر في حضرتك، ودايمًا يجيب سيرتك بالخير"، ثم أكملت مستفسرًا: "بس برضو...حضرتك مقولتليش ايه الموضوع؟"

اعتدل في مجلسه وارتشف من كوب القهوة الذي طلبه، ثم أكمل: "جدك من حوالي عشر سنين كده بعد ما عمك أخدك من أحضانه كان مقهور وحزين جدًا. أول مرة أشوفه في حياتي كده، لكن دايمًا كالعادة كان بيدفن نفسه وسط شغله وتجاربه علشان ينسى حزنه، من شبابه وهو كده. بعد ما خرج شوية من الفترة دي، لقيته جاي يزورني في المكتب ومعاه الصندوق دا".

ثم تناول الصندوق الذي أحضره معه وناولني إياه، وأكمل قائلًا: "سألته ساعتها عن الصندوق دا، قال لي: إن الصندوق دا شايل فيه حاجة مهمة جدًّا تعتبر أهم حاجة في حياته. وطلب مني أشيلها معايا، وطلب مني برضو إنه هيعدي عليّا كل فترة يحط حاجة في الصندوق دا أو ياخدها منه. طبعًا ساعتها مكنتش فاهم عاوز ايه، بس أنت عارف مقدرش أرفض له طلب. حافظت على الصندوق دا طول السنين دي، وكل فترة كان بيمر عليّا مرة كل شهر، وساعات كان يمر بالشهرين والتلاتة ميعديش، مفيش مواعيد محددة ليه، بس كان لما ييجي ياخد الصندوق ويفتحه في أوضة مقفولة عليه. أنا احترمت خصوصيته وعمري ما سألته ايه اللي في الصندوق حتى هو كان عامل قفل سري عليه بأرقام سرية. مقالش هي أيه بس أنا رفضت أسأله، دي حاجاته وهو حر فيها أكيد"

سألته وقد بلغت مني الإثارة مبلغها:

– طيب دلوقتي أنا أعمل ايه مع الصندوق دا؟

أجابني: "أنا فاكر في الشهور اللي فاتت دي، جدك كان تعب أوي.. ساعتها عدى عليّا زي عادته، بس مفتحش الصندوق. بلغني بس إن الصندوق دا يتسلم ليك أنت شخصيًّا باليد في حالة إنه توفى أو حصلت له حاجة خطيرة أوي، كأنه كان حاسس إن أجله قرب"، ثم بدأ الأستاذ "عبد الله" في بكاءٍ هادئ صامت.

تدافعت الأفكار في رأسي.. صندوق مغلق... سر... رقم سرى. كل يوم أكتشف سرًّا بخصوصك يا جدي، يا ترى ما هو السر تلك المرة؟ خفت أن يشغلني التفكير عن السؤال الهام، فسألت أستاذ "عبد الله":

– طب دلوقتي أنا أقدر افتح الصندوق ازاي يا أستاذ عبد الله؟ أنا معرفش الرقم.

أجابني حائرًا: "والله يا بني أنا معرفش الرقم، كل اللي قالهولي وقتها: "خلي أدهم يدور...هو هيقدر يخترق آفاق السر دا بنفسه".

ما زالت الحيرة تتملكني... لم أفهم ما قال. حاولت التفكير في معنى تلك الجملة ولكنّ ذهني كان كمِرْجَلٍ تُقلّب فيه وصفات السحرة. كانت الجملة الأخيرة إيذانًا بانتهاء المقابلة.

استأذن الأستاذ "عبدالله" وقام.. رافقته لتوصيله لباب المنزل، وسلّم عليّ بجملةٍ ما، لم أميزها لشرودي وتفكيري في كلمات جدي.

عدت لغرفة مكتب جدي، ارتكنت إلى أرفف المكتبة، استعدت ما قاله جدي: "خلي أدهم يدور.. هو هيقدر يخترق آفاق السر دا بنفسه".. دائمًا ما كنت تعشق اللعب معي يا جدي، لكن تلك المرة أعجز بالفعل عن فهم ما تقول...أخترق السر! هل تقصد أني أخترق الصندوق لأعرف السر؟ لا.. بالتأكيد لا.. لم يلجأ جدي للقوة أبدًا. دائمًا اقتنع باستخدام العقل. إذن.. فلأُعمِل عقلي لأصل للسر لاخترق آفاقه..لاخـــــ... نعم!!

اخترق آفاقه.....إنه الكتاب!

التففتُ بسرعة إلى المكتبة، نظرت بسرعة إلى الرف الأسفل، سحبت الكتاب منه في رفق...نعم إنه الكتاب. أول كتاب أمسكته في تلك المكتبة.."نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للإدريسي. ابتسمت في فرح، لقد فهمتك يا جدي، علمت ماذا تقصد بالاختراق. فتحت الكتاب وأخذت في تقليب صفحاته، نفس الكتاب، لم يتغير به شيء.. لا توجد أي كتابات أو أي علامات توضح ما المطلوب فعله بالكتاب. لم أفهم.. أنا متأكد من أني أمسك بمفتاح حل اللغز.. إذن ما المشكلة؟

قلدت أبطال الروايات...أمسكت بالكتاب ونظرت في غلافه من الداخل، ربما أجد خطابًا سريًّا، أذهلني وجود ما يشبه آثار صمغ على طرف الغلاف من الداخل. هرعت إلى المكتب وأمسكت بفتاحة الخطابات الموضوعة عليه. ضغطت بها بحرص لتنسل ورقة مطوية بعناية من الغلاف. أخذتني الدهشة بالفعل تلك المرة خطابًا مخبأً في غلاف الكتاب.. إن أسرارك تزداد وعورة يا جدي!!

***

7

انزلقت الورقة المطوية من غلاف الكتاب لتزداد معها ضربات قلبي من فرط الإثارة...خطاب مخبأ في غلاف كتاب...أي سر خطير هذا الذي خبأه جدي؟ ولماذا كل تلك الإعدادات؟ أمسكت الورقة وفضضتها، وبدأت أقرأها وعيناي غير مصدقتين ما تقرأ.

"بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزي أدهم،

ما دمت قد وصلت إلى هذا الخطاب، فهذا دليل على فوزي بالرهان. لقد راهنت نفسي على ذكائك وقدرتك على حل اللغز، وبما أن الخطاب بين يديك الآن فهذا معناه أني قد غادرت هذا العالم وذهبت للقاء وجه ربي الكريم. أعذرني يا أدهم، وددت لو أراك ولو لمرة أخيرة قبل أن أموت ولكن عائلة والدك -رحمه الله- كانت السبب في فراقنا، لن أستطيع أن أنسى اليوم الذي جاء فيه عمك كمال لأخذك مني وضمك لكنفه وكنف عائلته. بعد هذا اليوم تغيرت حياتي فعلًا. حدث ما لم أتخيله...ورأيت ما لم يراه أحد من قبل، لن أطيل عليك في هذا الخطاب الصغير....ستعلم كل شيء بعد قليل.

من المفترض أن "عبد الله" صديقي العزيز قد أحضر إليك الصندوق، ستجد قفلًا بالأرقام يحمي هذا الصندوق، استعمل عقلك وافتح هذا

القفل، مفتاح القفل هو تاريخ يوم رحيلك عني، عسى أن تتذكر ذلك اليوم مثلما تذكرته أنا.

جدك جمال"

طويت الورقة، وقد انتابني زخم من المشاعر لم أستطع تحديده، حزن وتأثر وانفعال وتوتر. أمسك بين أصابعي بخطاب شخصي من جدي العزيز... ينبهني لسر جديد...وتذكرت ذلك اليوم المشؤوم، يوم أن أخذني عمي من أحضان جدي، بالفعل كانت نقطة تحول في حياتنا.

عدت إلى الصالون لأحمل الصندوق إلى غرفة المكتب، وضعته أمامي بعناية، تذكرت تاريخ ذلك اليوم، وحركت عجلة الأرقام في القفل.. بعد آخر رقم أصدر القفل صوت تكة مميزة تعبر عن فتح القفل. خلعت القفل ووضعته بجانب الصندوق، وفتحت الصندوق بكل ترقب.

رزمة من الأوراق المجموعة يدويًا في شكل مجلد.. هذا ما وجدته. أخرجتها بعناية من الصندوق، وقد بدا عليها القِدم، فاصفرت بعض أطراف صفحاتها الأولى وتشتت، بينما احتفظ الباقي بتماسكه. ما شد انتباهي هو ما على غلاف المجلد، رسم يدوي لدائرة، ويخرج منها خطان من نقطة مركزها في زاوية شبه منفرجة. لم أفهم معنى ذلك الرمز؛ لذلك بدأت في قراءة تلك الأوراق؛ لعلها تحمل إجابة لتساؤلاتي الحائرة.

أمسكت الغلاف وفتحت أول صفحة، وبدأت أقرأ ما كتبه جدي.

***

"بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزي أدهم،

إن وجود تلك الأوراق بين يديك الآن لهو أكبر دليل على حسن ثقتي بك، واستكمالًا لما كتبته لك في خطابي الصغير.. ما بين يديك الآن هو

سري العظيم..سري الذي كتمته بداخلي طيلة حياتي الفانية. لذلك أريد منك أن تشحذ حواسك وتنتبه لما ستقرأه في الصفحات القادمة، فأنت من تلك اللحظة لن تصير حياتك كسابقها، وستمتلك ما يطمع فيه أي إنسان، فاحترس.

لن أستطيع أن أروي لك ذلك السر بدون أن أخبرك بمقدماته، ومقدمة السر ترجع إلى سنين بعيدة كنت فيها في مثل سنك وقتها شاب لأسرة ميسورة الحال، والدي تاجر من الطبقة المتوسطة –تلك الطبقة التي هُمشت بالكامل بعد ذلك في عصر السادات ثم مبارك– واستطاع والدي تربيتي أنا وأخويّ الأربعة أفضل تربية، اهتم بتنشئتنا عقليًا وبدنيًا، فلم يبخل عليّ بكتاب أقرأه، حيث كنت شديد النهم لقراءة كل ما يقع أمام عيني من كتب أو مدونات.

لطالما حلم والدي بأن يراني عالمًا فيزيائيًا كبيرًا، فقد حمل في داخله إجلالًا واحترامًا كبيرًا لمكانة العالِم، وخاصةً أن وقتها بزغ نجم العالم المصري الراحل "علي مصطفى مشرفة"، فكان خير مثال للعالم الفيزيائي المصري، لكني للأسف دائمًا كنت مخيباً لآمال أبي في تلك النقطة، فأنا أحمل داخلي حبًا عارمًا للتاريخ، أعشق تصفح التاريخ والاستزادة منه دائمًا... تاريخ الإنسانية منذ ولادتها وهو في تكرار مستمر...أمم تتكون وتتجمع لتتحد وتنهض، ثم تسيطر، ثم تشيخ لتموت وتفسح المجال لأمة أخرى بعدها.. وهكذا دواليك..تمر الأيام بنا ولا ندري أننا تروس صغيرة في آلة كبيرة هي مجرى الزمن؛ لذلك عشقت التاريخ..كان هو مرشدي ومعلمي. علمت منه ما روى ظمئي للمعرفة، ولكن ذلك لم يوقفني، بل زادني عطشًا للاستزادة.

بعد أن أتممت دراستي.. صرت على استعداد للالتحاق بالجامعة، وكانت تلك لحظة الصدام مع والدي، فقد تقابل عشقي للتاريخ مع

إصراره على دراستي للفيزياء وقتها رضخت لرغبة والدي احترامًا له. ولكني يومها أقسمت لنفسي أن دراستي للفيزياء لن توقفني عن اهتمامي بالتاريخ، فصارت الفيزياء في كفة والتاريخ في الكفة الأخرى. وبحمد الله استطعت أن أوازن بين الكفتين بدون أن أقلل من اهتمامي بأحدهما على حساب الآخر.

تفوقت في دراستي وكنت من نخبة دفعتي طوال سنوات الدراسة حتى تخرجت بعدها بأحد مراكز الأوائل على الدفعة وقتها كنا في فترة حكم الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وقت أن كانت العلاقات بين مصر والاتحاد السوفيتي قد بلغت أعلى مستوياتها، فاعتبر الاتحاد السوفيتي آنذاك رئيسنا صديقهم الأكبر من بين جميع أصدقائهم من زعماء العالم والوطن العربي، وأتيح لنا وقتها أن يتم إرسالنا في بعثات تعليمية على نفقة الوزارة إلى الاتحاد السوفيتي. كان السوفيت وقتها- وما زالوا- من كبرى الدول المهتمة بالعلوم وخاصة الفيزياء. حينما علم والدي بذلك الخبر، فرح فرحًا شديدًا، ومن فرط فرحته توقف قلبه عن الخفقان ليرحل عن دنيانا ويغادرنا في يوم حزين من أيام ذلك العام بمنتصف الخمسينيات.

سافرت إلى الاتحاد السوفيتي حاملًا في قلبي حزنًا شديدًا على وفاة والدي؛ مضطرًا للسفر رغمًا عني، تاركًا أمي وحدها مع إخوتي الأربعة. كان عزائي الوحيد وجود أخي بجانبها وبجانب أخواتي الفتيات. الأمل معقود عليهم أن يعتنوا بأمي حتى أستطيع الحضور إلى مصر في أقرب إجازة.

وصلت إلى الاتحاد السوفيتي، ومنذ أن وطأت قدماي الأرض هناك، شعرت ببرودة المكان تزلزل أعماقي وتبعث في أوصالي اليأس والكآبة؛ ليمتزج ذلك الشعور بحزني الداخلي، فتكون مزيجًا بائسًا جعلني أبدو كإنسانٍ محطم النفس.

استطعت بعد فترة تكوين بعض الصداقات مع زملاء مصريين في البعثة، وبعض أساتذتنا السوفيت في جامعة "موسكو" الحكومية، ولكن كان أشدهم صداقة هو الدكتور "جريجوري ديميتريف" مساعد عميد كلية الفيزياء، رجل طموح وعالم فيزيائي من كبار علماء الجامعة. استطعت بتفوقي وشغفي الحقيقي بالفيزياء أن استرعى انتباهه، فبدأ في تجاذب أطراف الحديث معي في شهوري الأولى من وجودي بالجامعة، ومع الوقت أصبحنا أصدقاء أعزاء، وجمعنا أيضًا حبنا المشترك للتاريخ الذي كان صدفة لم يصدقها أحدنا.

في عامي الثاني بالبعثة صار بيننا علاقة صداقة وثيقة، وكان خير تتويج لصداقتنا هو زواجي من ابنته الصغرى "كاترينا". كانت "كاترينا" في العشرين من عمرها، منذ أن رأيتها للمرة الأولى أثناء زيارتي لوالدها في منزلهم، استطاعت أن تجذب عقلي وقلبي معًا بعينيها الزرقاوين كماء البحر، وخصلات شعرها الذهبي المتهدلة على جبينها في كسل، وبشرتها البيضاء الوهاجة. مع مرور الوقت، لاحظ والدها بذكائه الشديد اهتمامي بها في كل مرة يأتي الكلام عنها أو تمر أمامنا حاملة لنا أكواب الشاي الساخن، وبعد شهور بارك والدها زواجنا. وهي وإن ظلت محتفظة بديانتها المسيحية الأرثوذكسية، ولكنها أيضًا كانت تحمل في داخلها توقيرًا كبيرًا للإسلام، ولقد احترمتُ فيها ذلك كثيرًا. أرسلت صور زفافي لأمي في مصر، وبلغني فرحتها العارمة متمنيةً لي السعادة والهناء، بالرغم من بعض الشكاوى البسيطة كعادة أي أم مصرية من تذمرها لزواجي من أجنبية، ولكن كل ذلك التذمر البسيط ذهب مع الريح فور أن أحضرتها معي في إحدى الإجازات إلى مصر، وقتها كان لقاء الحضارتين المصرية والروسية خير لقاء، لقاء غريب ومضحك نوعًا ما، لكنه مرّ بسلامٍ والحمد لله.

بعد مكوثي في أرض الاتحاد السوفيتي لحوالي عامين، أدرس فيها الفيزياء وأحضّر لنيل شهادة البكالوريوس، صرت متقنًا للغة الروسية، وكنت الأفضل بين أقراني في التحدث بها بكل طلاقة بالرغم من صعوبتها، مما شجعني على فكرة تعلم اللغات، ونويت أن أتعلم المزيد من اللغات فور عودتي لمصر.

في عامي الثالث أنجبت "كاترينا" ابنتنا الوحيدة، أمك يا أدهم -رحمها الله- وقتها رغبت "كاترينا" في أن تسمي ابنتها اسمًا عربيًا خالصًا. سألتني ما أفضل الأسماء العربية عندنا.. لم يدر ببالي اسمٌ معين، ولكنني كنت أُكِنُّ حبًا خالصًا لأهل بيت النبيّ -صلي الله عليه، وسلم!- وخاصة السيدة "زينب" التي عشقت الصلاة بمسجدها بمدينة القاهرة، فاقترحت اسم "زينب". نطقت "كاترينا" الاسم فأعجبها رنينه واقتنعت به سريعًا، وكان ذلك اليوم من أجمل أيام حياتي بالفعل.

زادت مكانتي علوًا في قلب أستاذي السيد "ديمتريف" بعد مجيء "زينب"، فلقد كانت فاتحة خير على الأسرة جميعها، فتمت ترقية السيد "ديمتريف" لمنصب عميد كليه علوم الفيزياء بجامعة "موسكو" الحكومية، واستطاعت "كاترينا" أن تحصل على وظيفة مترجمة بإحدى الصحف السوفيتية الصادرة بالعاصمة موسكو. كان عام مولد "زينب" نقطة تحول في حياتي بالاتحاد السوفيتي، بل لا أكذبك القول إذا قلت نقطة تحول في حياتي بأكملها.

***

أوقفت قرائتي قليلًا لخطاب جدي بالرغم من انتظاري لبداية حديثه عن السر، ولكن لم أملّ مما كتبه، فأنا لأول مرة يخبرني جدي عن نفسه بأشياء لم أعرفها من قبل. عرفت ممن ورثت والدتي تلك البشرة البيضاء، من أمها

الروسية. اندهشت قليلًا عند علمي بأن هناك شخصًا روسيًّا من أجدادي، ربما إذا بحثت قليلًا في نسب عائلتنا منذ القدم لوجدت أن جد جد جد جدي كان إغريقيًّا أو بابليًّا.. أحيانًا كثيرة يلهو التاريخ بنا بطريقة مضحكة.

ذهبت للمطبخ لإعداد كوبًا من النيسكافيه الدافئ، فالليلة يبدو أنها ستطول بالرغم من أن غدًا هو الجمعة ويجب عليّ الاستيقاظ مبكرًا للذهاب لصلاة الجمعة، ولكن إغراء قراءة مذكرات جدي كان قويًّا للغاية.

عدت إلى الصالون ممسكًا بكوب النيسكافيه، أعددت جلستي ووضعت الورق أمامي لأكمل قراءة المذكرات.

***

"كان عام مولد "زينب" نقطة تحول في حياتي بالاتحاد السوفيتي، بل لا أكذبك القول إذا قلت نقطة تحول في حياتي بأكملها. ففي ذلك العام، كنت أدرس في معمل الفيزياء كالعادة، حينما أتاني السيد "ديمتريف" وطلب مني موافاته إلى مكتبه بعد انتهائي من تجاربي.

أجبته بالموافقة، وحاولت إنهاء ما بيدي بسرعة حتى لا أتأخر على موعدي معه. انتهيت من تجربتي وسجلت نتائجها ثم ذهبت إلى السيد "ديمتريف" في مكتبه الخاص بالجامعة، طرقت الباب لأسمع صوته من الداخل يأمرني بالدخول.

دخلت وقد بدأت في القلق عندما رأيت وجه السيد "ديمتريف" المرتسم عليه الاهتمام وكثرة التفكير بوضوح كالشمس، طلب مني الجلوس، فجلست وما زلت قلقًا. بدأ الكلام معي بالروسية التي صرت أتحدثها كأهلها.

– أنت تعلم يا جمال إنني صرت أعتبرك بمثابة الابن، خاصةً أن ابني قد رحل عنّي وهو في عمر المراهقة، لذلك منذ أن تعرفت عليك وأعجبني فيك جدك واجتهادك، صرت أعاملك كابني بالفعل. وازداد حبي لك بعد أن صرت زوجًا لابنتي، وأنا آتمنك عليها منذ سنتين؛ لذلك اتخذت قراري بأن آتمنك على سري أيضًا.

أجبته باهتمام: "يشرفني يا سيدي أن تثق بي، وإنما احترامي لك ما هو إلا أقل شيء يمكن أن أقدمه لك بعد رعايتك لي، وإشرافك الدائم عليّ، وائتمانك على ابنتك الغالية أم ابنتي، ولكني لم أفهم بعد ما هو ذلك السر الذي تود أن تخبرني به؟"

اخفض السيد "ديمتريف" من صوته قليلًا وقال: "يجب أن لا يعلم أحد بذلك السر يا جمال، فأنت تعلم أن الجواسيس منتشرون في كل مكان في أرض الاتحاد السوفيتي، ليس جواسيس الأمريكان فقط، بل الجواسيس السوفيت أنفسهم.. المخابرات السوفيتية لديها عيونها في كل شبر من أرض الاتحاد؛ لذلك أود أن تحترس جيدًا إذا علمت ذلك السر.. ذلك السر سوف يغير من حياتك إلى الأبد، وأنت الوحيد الذي أراه جديرًا بأن يعلمه معي، وأن تحمل الراية من بعدي إذا توفيت...فهل ستثبت لي جدارتك بالفعل؟"

ازدردت لعابي وأجبته بكل توتر: "أعدك أني سأكون على قدر المسئولية يا سيدي".

***

8

ما زلت مستغرقًا في قراءة مذكرات جدي -رحمه الله- وقد انتابني مزيد من الشوق لمعرفة ماهية السر الذي نُسجت حوله كل تلك الألغاز والرسائل المخبأة.

"اقترب مني السيد "ديمتريف" وقتها وسألني بصوت خفيض:

- هل رآك أحد أثناء مجيئك إلى مكتبي؟

اندهشت من سؤاله، فالجميع يعلم أنني دائم المرور على مكتبه وكثيرًا ما يراني أغلب الطلبة والدارسين مع السيد "ديمتريف" وبالرغم من دهشتي، أجبته بدون تردد:

- لا، لقد كان أغلب الطلاب في غرف الدراسة.

أجابني السيد "ديمتريف" وقد غلب الارتياح على صوته:

- حسنًا... اتبعني من فضلك يا جمال

تبعت السيد "ديمتريف" وقد انتابني القلق من طريقة كلامه وأفعاله الغريبة... لم أعتده بتلك الغرابة، إنه كمن يخبئ سرًا خطيرًا أو كمن ارتكب فعلة شنعاء يخاف من افتضاح أمره بسببها.

وجدت السيد "ديمتريف" يقتادني لغرفة المعامل العامة التي يجري بها الطلبة والأساتذة تجاربهم الفيزيائية، ولكنه لم يتوقف في تلك الغرفة، بل أكمل طريقه نزولًا للقبو المجاور للمعمل، الذي تمّ استعماله قديمًا كمعمل

أيضًا، ثم تحول مع التطويرات التي تمت بالقسم إلى مجرد قبوٍ لتخزين الأدوات وبقايا التجارب.

دخلنا معًا إلى القبو، أغلق الباب خلفي بالمفتاح. توجست خيفةً لما فعله. كانت الإضاءة خافتة مما جعلني أميز الصناديق الموضوعة أمامي بصعوبة، أضاء السيد "ديمتريف" مصباح القبو، لم تكن إضاءته بالقوة الكافية لإنارة القبو بالكامل، ولكنها كانت كافية على الأقل لكي تريني ما أمامي من صناديق بوضوح.

اتجه إلى السيد "ديمتريف" وسألني بكل حزم: "ماذا تعلم عن الفيزياء يا جمال؟"

صُدمت من سؤاله، وبدأت ارتاب في الصحة العقلية لذلك الرجل، فها هو يأتي بي من وسط تجاربي وعملي المتواصل، ويسير بي خلال الغرف والمعامل ليصل بنا إلى قبوٍ قديم مهجور ليسألني عن مدى درايتي بتخصصي الذي أدرس فيه منذ ما يربو عن خمس سنوات.

أجبته في تردد: "لا أعلم ما المقصود بسؤالك، لكنّي أعلم أني لست مكتفيًا بما تعلمته كل تلك السنوات"

لمعت عيناه وأمسك بكتفي قائلًا: "تأكدت من أنك ستقول ذلك، إنك بالفعل تستحق معرفة السر..في داخلك بذرة العالم الحقيقي، وطموحك وثقافتك العلمية كانا خيرَ دافعٍ لي على إشراكك معي في سري"

بلغ مني القلق مبلغه...لم أستطع كتمان تساؤلاتي، سألته ببعض الحدة: ما هذا السر الذي تتكلم عنه منذ أن أتيت بي؟

صمت قليلًا، ثم أردف: "أعلم أنك متشوق لمعرفة السر، وسوف أكشف لك عنه، حالًا سترى تجربتي العلمية الأعظم في تاريخ الفيزياء"

8

ما زلت مستغرقًا في قراءة مذكرات جدي -رحمه الله- وقد انتابني مزيد من الشوق لمعرفة ماهية السر الذي نُسجت حوله كل تلك الألغاز والرسائل المخبأة.

"اقترب مني السيد "ديمتريف" وقتها وسألني بصوت خفيض:

- هل رآك أحد أثناء مجيئك إلى مكتبي؟

اندهشت من سؤاله، فالجميع يعلم أنني دائم المرور على مكتبه وكثيرًا ما يراني أغلب الطلبة والدارسين مع السيد "ديمتريف" وبالرغم من دهشتي، أجبته بدون تردد:

- لا، لقد كان أغلب الطلاب في غرف الدراسة.

أجابني السيد "ديمتريف" وقد غلب الارتياح على صوته:

- حسنًا... اتبعني من فضلك يا جمال

تبعت السيد "ديمتريف" وقد انتابني القلق من طريقة كلامه وأفعاله الغريبة... لم أعتده بتلك الغرابة، إنه كمن يخبئ سرًّا خطيرًا أو كمن ارتكب فعلة شنعاء يخاف من افتضاح أمره بسببها.

وجدت السيد "ديمتريف" يقتادني لغرفة المعامل العامة التي يجري بها الطلبة والأساتذة تجاربهم الفيزيائية، ولكنه لم يتوقف في تلك الغرفة، بل أكمل طريقه نزولًا للقبو المجاور للمعمل، الذي تمّ استعماله قديمًا كمعمل

أيضًا، ثم تحول مع التطويرات التي تمت بالقسم إلى مجرد قبوٍ لتخزين الأدوات وبقايا التجارب.

دخلنا معًا إلى القبو، أغلق الباب خلفي بالمفتاح. توجست خيفةً لما فعله. كانت الإضاءة خافتة مما جعلني أميز الصناديق الموضوعة أمامي بصعوبة، أضاء السيد "ديمتريف" مصباح القبو، لم تكن إضاءته بالقوة الكافية لإنارة القبو بالكامل، ولكنها كانت كافية على الأقل لكي تريني ما أمامي من صناديق بوضوح.

اتجه إلى السيد "ديمتريف" وسألني بكل حزم: "ماذا تعلم عن الفيزياء يا جمال؟"

صُدمت من سؤاله، وبدأت ارتاب في الصحة العقلية لذلك الرجل، فها هو يأتي بي من وسط تجاربي وعملي المتواصل، ويسير بي خلال الغرف والمعامل ليصل بنا إلى قبوٍ قديم مهجور ليسألني عن مدى درايتي بتخصصي الذي أدرس فيه منذ ما يربو عن خمس سنوات.

أجبته في تردد: "لا أعلم ما المقصود بسؤالك، لكنّي أعلم أني لست مكتفيًا بما تعلمته كل تلك السنوات"

لمعت عيناه وأمسك بكتفي قائلًا: "تأكدت من أنك ستقول ذلك، إنك بالفعل تستحق معرفة السر..في داخلك بذرة العالم الحقيقي، وطموحك وثقافتك العلمية كانا خيرَ دافعٍ لي على إشراكك معي في سري"

بلغ مني القلق مبلغه...لم أستطع كتمان تساؤلاتي، سألته ببعض الحدة: ما هذا السر الذي تتكلم عنه منذ أن أتيت بي؟

صمت قليلًا، ثم أردف: "أعلم أنك متشوق لمعرفة السر، وسوف أكشف لك عنه، حالًا سترى تجربتي العلمية الأعظم في تاريخ الفيزياء"

أزاح السيد "ديمتريف" الغطاء عن صندق خشبي يستعمل عادةً لتخزين المعدات الزجاجية والمعدنية المستخدمة في التجارب المعملية، ثم فتح الصندوق وأخرج منه علبة كبيرة الحجم قليلًا، ولكنها ما زالت في متناول اليدين.. وقبل أن يفتحها بدأ في التحدث.

– مر علم الفيزياء بعديد من التطورات على مدار تاريخه الممتد خلال القرون السابقة، بدأ كمعتقدات جاهلة ثم تحورت لأفكار محتفظة ببعض من تلك المعتقدات، ثم تطورت إلى أفكار علمية خالصة صارت قواعد صارمة، ومنها ما نسير عليه نحن العلماء لاكتشاف المزيد والمزيد من نبع ذلك العلم الفياض.

وفي عشرينيات قرننا هذا، تقبل المجتمع الفيزيائي بعد سنوات، نظريات العالم اليهودي الأصل "ألبرت أينشتاين"، كالنظرية النسبية الخاصة والنظرية النسبية العامة، تلك النظريات كانت اللبنة الأولى للفيزياء الحديثة التي ندرسها الآن.

أينشتاين في نظريته النسبية العامة وضع الزمن بُعدًا رابعًا للأبعاد الديناميكية الثلاثة، وسمّى الفضاء ذا الأبعاد الأربعة بالـــــــ"زمكان"، حيث يجتمع المكان والزمان معًا.

تلك النظريات والمصطلحات العلمية الجديدة أثارت اهتمامي شخصيًا وقتها كأي طالب علم شغوف بالفيزياء... وقد كنت في مثل سنك وقتها، ولكن اهتمامي فاق اهتمام زملائي. لقد انجذبت للفكرة بالفعل وظللت لسنواتٍ أدرسها وأجري التجارب المشتقة منها، وقتها جاءني الإلهام.. لماذا لا أصل بتلك النظرية لما هو أبعد؟ لماذا لا أحقق بها ما كان مستحيلًا على مر العصور؟

أثناء تجاربي وانشغالي التام بتلك النظريات، ظهر العالم الفلكي الألماني "كارل سفارتسشيلد" ليخرج برائعته العلمية التي كانت نقطة التحول في تجربتي. افترض "سفارتسشيلد" أنه إذا ضغطت كتلة ما في حدود نصف قطر صغير بما فيه الكفاية، فإن انحراف الزمكان سيكون كبيرًا بحيث لن تتمكن أي إشارة من أي نوع من الإفلات، بما في ذلك الضوء نفسه مكونًا حيّزًا لا يمكن رؤيته، سُمّي فيما بعد بالثقب الأسود، ويحدث ذلك عند انهيار نجم تتجاوز كتلته ضعف كتلة الشمس، حيث ينضغط ويتداخل بفعل قوته الجاذبة حتى تكون كل مادة النجم قد انضغطت في نقطة ذات كثافة لا متناهية، تسمّى نقطة التفرد الزمكاني، وأي شعاع ضوء (أو أي جسم) يرسل داخل حدود الثقب الأسود، ويسمى أفق الحدث، يسحب دون هوادة إلى مركز الثقب الأسود.

مساهمة "سفارتسشيلد" تكمن في أنه قدم حلولًا للمعادلات التي تصف انهيار النجم إلى ثقب أسود على أساس نظرية النسبية، واتضح لاحقًا أن "سفارتسشيلد" لم يصل إلى حل واحد للثقب الأسود، وإنما إلى حلين، وهو شيء يشابه الحل الموجب والحل السالب للجذر التربيعي، فالمعادلات التي تصف الانهيار النهائي لجسم يقتحم الثقب الأسود تصف أيضًا -كحلٍ بديل- ما يحدث لجسم يخرج من الثقب الأسود (يطلق عليه في هذه الحال أحيانًا الثقب الأبيض).. وبذلك يبدو أننا إذا ما تابعنا انحناء الزمكان داخل الثقب الأسود يبدو لنا وكأنه ينفتح مرة أخرى على زمكان آخر، فكأنما الثقب الأسود يربط زمكان كوننا بزمكان مختلف تمام الاختلاف، ربما زمكان لكون آخر أو ربما نفس كوننا، طبقًا لتردد ذلك الثقب الأسود.

أوقفته للحظة لألتقط أنفاسي بعد ذلك الكم الهائل من المعلومات، لقد كان أغلبها معلوم بالنسبة لي، ولكن لم يربط أحد من قبل بين تلك

النظريات بتلك الطريقة كما فعل السيد "ديمتريف"، لقد ألقى بي في غياهب الفيزياء بدون أن يرمي بطوق النجاة!

سألته في توتر:

– حسنًا، لقد فهمت ما رويته لي عن تلك النظريات، وأنا أعلمها بالفعل –وإن لم أفكر فيها من قبل بتلك الطريقة– فتلك النظريات أغلبها في طور النظرية التي لم يتم إثباتها بالتجربة بالفعل. لم يستطع أحد توليد ثقب أسود أو ممر دودي داخل معمله لنقل المواد من خلاله من مكان لآخر خلال الفراغ؛ لذلك أريدك أن تخبرني ما صلة تلك النظريات بوجودنا هنا في هذا القبو القديم؟

تحسّسَ السيد "ديمتريف" علبته الممسك بها في حنان، ونظر إليها قليلًا ثم توجه بنظره إليّ، واستطعت أن أرى لمعانًا واضحًا في عينيه الزرقاوين المجهدتين، أجابني بصوتٍ هادئ:

– لقد أخبرتك من قبل إنني قد مضيت في تجربة تلك النظريات، وإنني أفنيت نصف حياتي في تجربتي العلمية التي ستغير علم الفيزياء إلى الأبد. تلك التجربة التي أثمرت أخيرًا في الشهور الأخيرة... أخيرًا استطعت تحويل النظرية إلى حقيقة... أخيرًا"

ثم أدار العلبة تجاهي وفتحها ليكمل كلامه: "أخيرًا.. صنعت أول آلة للسفر في الزمكان"

صُعقت من المفاجأة وأنا أرمق تلك الآلة المعدنية القابعة في قلب العلبة بين راحتي السيد "ديمتريف"، لم أتصور أن تكون آلة الزمن بذلك الصغر، تخيلتها ماكينة كبيرة مليئة بالتروس والأذرع الميكانيكية التي تصدر أصواتًا وأضواءً وضجيجًا ودخانًا.

سألته وقد خرجت الكلمات بصعوبة على لساني:

– هذه هي آلة الزمن؟

أجابني بانفعالٍ وقد بدا عليه الضيق:

– لا يوجد ما يسمى بآلة الزمن.. ذلك مصطلح ينم عن جهل مطلق بطبيعة الزمن، للأسف خرج على لسان الأديب الإنجليزي "هـ.ج.ويلز" في روايته بنفس الاسم. الزمن ليس جسمًا ملموسًا لتكون له آلة تحركه، ما أمامك هو مولد للطاقة، يسمح بإنتاج كمية كافية لتوليد مجال أشبه بالمجال الكهرومغناطيسي لنفس المجال المتولد من الممرات الدودية، ومن خلال ذلك المولد وبعض الأجهزة الأخرى يمكنني التحكم في قوة المجال وضعفه والتردد الخاص بموجاته لأستطيع التحكم في منفذه الآخر، إنها الخطوة الأولى على درب صنع آلة كاملة للانتقال في الفراغ، ومنه نصل إلى أي زمان ومكان نريده بمجرد علمنا بالتردد المطلوب وقوة المجال وشدته، كل ما علينا فعله هو إيجاد طريقة للتلاعب بالممرات الدودية وجعلها طوع أمرنا، وقتها يمكنني نفي الأراء التي تتنبأ بفشل تلك التجربة تمامًا.

سألته في اهتمامٍ وقد بدأ الموضوع يتحول بالفعل لحقيقة بالنسبة لي:

– هل جربته بالفعل؟ هل انتقلت في المكان أو في الزمان؟

أجاب بأسًى: "للأسف يا جمال...حتى الآن نتائج تجاربي محدودة للغاية.. لم أستطع أن أنقل سوى عملة معدنية من حجرة إلى أخرى خلال زمن قدره ساعتين. كانت تجربة فاشلة بمعنى الكلمة، لكني لن أيأس، سأظل مؤمنًا بعبقريتي، لقد نقلت تلك العملة، وسأنقل ما أريد قريبًا"

أجبته بكل صدق: "أوافقك في عدم اليأس، ولكن أعتقد أن تلك التجربة –خصوصًا مع تلك النتائج المخيبة– سيكون مصيرها الفشل بالفعل.. لماذا لا تُشرك معك أساتذة القسم في تلك التجربة لعلها تتوج بالنجاح؟"

النظريات بتلك الطريقة كما فعل السيد "ديمتريف"، لقد ألقى بي في غياهب الفيزياء بدون أن يرمي بطوق النجاة!

سألته في توتر:

– حسنًا، لقد فهمت ما رويته لي عن تلك النظريات، وأنا أعلمها بالفعل –وإن لم أفكر فيها من قبل بتلك الطريقة– فتلك النظريات أغلبها في طور النظرية التي لم يتم إثباتها بالتجربة بالفعل. لم يستطع أحد توليد ثقب أسود أو ممر دودي داخل معمله لنقل المواد من خلاله من مكان لآخر خلال الفراغ؛ لذلك أريدك أن تخبرني ما صلة تلك النظريات بوجودنا هنا في هذا القبو القديم؟

تحسّسَ السيد "ديمتريف" علبته الممسك بها في حنان، ونظر إليها قليلًا ثم توجه بنظره إليّ، واستطعت أن أرى لمعانًا واضحًا في عينيه الزرقاوين المجهدتين، أجابني بصوتٍ هادئ:

– لقد أخبرتك من قبل إنني قد مضيت في تجربة تلك النظريات، وإنني أفنيت نصف حياتي في تجربتي العلمية التي ستغير علم الفيزياء إلى الأبد. تلك التجربة التي أثمرت أخيرًا في الشهور الأخيرة... أخيرًا استطعت تحويل النظرية إلى حقيقة... أخيرًا"

ثم أدار العلبة تجاهي وفتحها ليكمل كلامه: "أخيرًا.. صنعت أول آلة للسفر في الزمكان"

صُعقت من المفاجأة وأنا أرمق تلك الآلة المعدنية القابعة في قلب العلبة بين راحتي السيد "ديمتريف"، لم أتصور أن تكون آلة الزمن بذلك الصغر، تخيلتها ماكينة كبيرة مليئة بالتروس والأذرع الميكانيكية التي تصدر أصواتًا وأضواءً وضجيجًا ودخانًا.

سألته وقد خرجت الكلمات بصعوبة على لساني:

– هذه هي آلة الزمن؟

أجابني بانفعالٍ وقد بدا عليه الضيق:

– لا يوجد ما يسمى بآلة الزمن.. ذلك مصطلح ينم عن جهل مطلق بطبيعة الزمن، للأسف خرج على لسان الأديب الإنجليزي "هـ.ج.ويلز" في روايته بنفس الاسم. الزمن ليس جسمًا ملموسًا لتكون له آلة تحركه، ما أمامك هو مولد للطاقة، يسمح بإنتاج كمية كافية لتوليد مجال أشبه بالمجال الكهرومغناطيسي لنفس المجال المتولد من الممرات الدودية، ومن خلال ذلك المولد وبعض الأجهزة الأخرى يمكنني التحكم في قوة المجال وضعفه والتردد الخاص بموجاته لأستطيع التحكم في منفذه الآخر، إنها الخطوة الأولى على درب صنع آلة كاملة للانتقال في الفراغ، ومنه نصل إلى أي زمان ومكان نريده بمجرد علمنا بالتردد المطلوب وقوة المجال وشدته، كل ما علينا فعله هو إيجاد طريقة للتلاعب بالممرات الدودية وجعلها طوع أمرنا، وقتها يمكنني نفي الأراء التي تتنبأ بفشل تلك التجربة تمامًا.

سألته في اهتمامٍ وقد بدأ الموضوع يتحول بالفعل لحقيقة بالنسبة لي:

– هل جربته بالفعل؟ هل انتقلت في المكان أو في الزمان؟

أجاب بأسًى: "للأسف يا جمال...حتى الآن نتائج تجاربي محدودة للغاية.. لم أستطع أن أنقل سوى عملة معدنية من حجرة إلى أخرى خلال زمن قدره ساعتين. كانت تجربة فاشلة بمعنى الكلمة، لكني لن أيأس، سأظل مؤمنًا بعبقريتي، لقد نقلت تلك العملة، وسأنقل ما أريد قريبًا"

أجبته بكل صدق: "أوافقك في عدم اليأس، ولكن أعتقد أن تلك التجربة –خصوصًا مع تلك النتائج المخيبة– سيكون مصيرها الفشل بالفعل.. لماذا لا تُشرك معك أساتذة القسم في تلك التجربة لعلها تتوج بالنجاح؟"

نظر إليّ في غضب وقال بحدة: "كلا.. هولاء الأغبياء ذوو العقول الفارغة لا يستحقون أن يشتركوا في تجربة عظيمة كتجربتي هذه. لقد ناقشتهم ذات مرة وأخبرتهم برأيي في تلك النظريات، سرعان ما ردوا عليّ بالسخرية والاستهزاء مني كمن سمع مجنونًا يهذي! وقتها قررت ألا يعلم أحد بتلك التجربة إلا من يستحق شرف أن يقترن اسمه بها"

ثم أكمل كلامه وقد بدأ يهدأ قليلًا: "وأنا أظن أنك لن تخبر أحدًا بما رأيته أو سمعته.. تلك التجربة ستظل سرًّا بيننا، ليس من مصلحة أحد منا أن يعلم سر تلك التجربة"

ازدردت لعابي قلقًا وأجبته: "لا تقلق يا سيدي، أقسم لك إنني لن أخبر أحدًا"

نظر إليّ برهة...ثم قال: "حسنًا.. لقد قضينا وقتًا طويلًا هنا يجدر بنا العودة إلى المكتب حتى لا نثير قلق أحد من الأساتذة"، ثم أكمل: "بالمناسبة.. لا تخبر "كاترينا" أيضًا بما عرفته... هل تفهمني؟"

أومأت برأسي إيجابًا وتبعته في صمت حتى خرجنا إلى باب مكتبه، وودعته ورحلت إلى مكتبي"

***

أوقفت قراءة المذكرات مؤقتًا لأرتب أفكاري وألتقط أنفاسي.. يا إلهي، بعض صفحات من مذكراتك وعلمت منها ما علمت! يا ترى ما القادم يا جدي؟ إن الأوراق ما زالت كثيرة.. وكلماتك بحر لا ينتهي، أسبح فيه بدون راحة –رحماك يا الله!– أجبرتني عيناي على النعاس والمذكرات ما زالت بين يدي لأرى في نومي أحلامًا غريبة.. رأيت جدي يناديني، ثم رأيت نفسي في ذلك القبو المهجور، ألمس آلة الزمن، أشعر بملمسها المعدني البارد، وأعبث في أجزائها جاهلًا ما أفعله. يتغير المكان والزمان حولي وأحلّق في بلادٍ بعيدة وأزمان ودهور غابرة.

استيقظت فزعًا في الصباح التالي، لأجد أمامي كارثة قد حدثت بينما كنت غارقًا في نومي الطويل.

تبًا.. تبًا!

***

9

توقف بي الزمن للحظة، مذكرات جدي ملقاة على المائدة بجانبي، وقد انسكب فوقها كوب النسكافية بالكمية المتبقية كلها على الأوراق...يا للهول! أسرعت لأنقذ ما يمكن إنقاذه، ولكن هيهات، لقد ارتوت الأوراق حتى يبست! فحصت ما تبقى من الأوراق فاكتشفت ضياع ما يقرب من ثلاث ورقات بسبب تشبعهم بالنسكافيه.

حاولت فصل الأوراق وتجفيفها جيدًا أو معالجتها مما حدث، لكن باءت محاولتي بالفشل. ضاعت مني ثلاث ورقات قد تحمل في طياتها أسرارًا أهم مما قرأت. بقدر إمكاني أحاول فك شفرة الكلمات المتداخلة مما كُتب، لكن لم أستطع. يا لها من بداية أبدأ بها يوم الجمعة!

نظرت إلى ساعتي لأجدها قد قاربت على الحادية عشرة صباحًا. أسرعت للاغتسال والإفطار ثم ارتديت ثيابي وذهبت للمسجد لأداء الصلاة.

دلفت قدماي إلى مسجد "الخازندارة"، أحد أقدم وأعرق مساجد حي شبرا، ومنذ أن خطت قدمي أرضيته الباردة تذكرت مجيئي لذلك الجامع في فترة طفولتي، يصطحبني جدي "جمال" -رحمه الله- ونسير في ردهاته الممتدة، أرقب بعينيي الصغيرتين خشوع المصلين، وأدقق في زخارف أبواب فصول التعليم الديني المتناثرة على جوانب ردهات المسجد، يمسك جدي بيدي في حنان ثم يجلسني بجانبه على الحصير الأخضر البالي قليلًا. نستمع

للخطبة في صمت واستغرق قليلًا في ملاحظة نقوش المنبر فيفوتني سماع ما يقوله الإمام، أنظر لجدي لأسأله عمّا فاتني فيبتسم جدي ويطلب مني السكوت وقتها لأنتظر بعد انتهاء الصلاة ثم نتناقش في مضمون الخطبة، فيعيدها عليّ جدي مرة أخرى وأنصت له في استمتاع.

ابتسمت في داخلي ثم خطوت لداخل المسجد، اخترت نفس موضع جلوسي قديمًا، افترشت الأرض في سعادة وكأني عشيق عاد لمعشوقته! خطا الإمام في وقارٍ درجات المنبر، ثم بدأ خطبته.

***

بعد انتهائي من صلاة الجمعة، عدت إلى منزل جدي حاملًا بعض المشتروات، وقد انتابني الاجهاد عقليًا وبدنيًا.. أغلب طريقي من المسجد للبيت قضيته في التفكير فيما قرأت البارحة، وينتابني الشوق لمعرفة ما حدث بعدها. لم أنتظر طويلًا لأعرف، وصلت إلى البيت في سرعة، تركت ما اشتريته في الصالة ودخلت مباشرة إلى المكتب. أمسكت بالأوراق وأكملت قرائتها محاولًا استدراك ما حدث في الورقات الثلاث.

"في نهاية شهرنا الثاني من التجارب، أعاد السيد "ديمتريف" إخباري بشكوكه كالعادة، وظللت أنا غير قادرٍ على تصديقه بالكامل. ظننته مصابًا بقلق زائد أو قد تأثر بالقبضة الحديدية لسلطة المخابرات السوفيتية آنذاك، ولكن في اليوم التالي قطعت الشك باليقين وتأكدت من صحة ما قاله.

هرعت إلى مكتب السيد "ديمتريف" لأخبره بما سمعت، طرقت الباب في عجل فأتاني الرد من الداخل بالإيجاب. دلفت بسرعة ثم أغلقت وراءي الباب، أخبرته بما سمعت من حديث بين اثنين من أعضاء هيئة التدريس بالجامعة عن مراقبة المخابرات للسيد "ديمتريف" والتشكك بأمره.

ردّ عليّ في خوف: "لقد أخبرتك منذ بدأت تجاربنا في الشهور السابقة ولم تصدقني. حسنًا.. لقد سبق السيف العزل، يجب أن نبدأ بمحاولة إخفاء ما يدل على تجربتنا السرية.. هلّا ساعدتني الآن؟"

بدأنا في تقطيع وحرق بعض الأوراق المتعلقة بالتجربة، ولكنها لم تكن ذات أهمية، وتأكدنا من حصولي على نسخة مصغرة من الأوراق الأساسية لأطروحة البحث، ثم هرعنا إلى القبو لنقل المعدات، وظللنا في تلك التحركات حتى حلّ علينا الليل البارد. أمرني السيد "ديمتريف" بالعودة إلى "كاترينا" ومساعدتها في رعاية "زينب" بشكل عادي وكأننا لا ندري شيئًا بخصوص المخابرات، سألته عمّا سيفعله، أخبرني بضرورة بقائه في مكتبه لانشغاله بأمور إدارية، ولكنه حاول أن يبدو مطمئنًا خاصةً أنه الآن لا توجد أي أدلة تثبت تجربته السرية، لم أقتنع بمحاولته، ودعوت الله سرًّا أن ينقذنا من أهوال الوقوع في قبضة مخابرات الـــ"كي.جي.بي" السوفيتية.

عدت إلى "كاترينا" والقلق يبدو على محياي، ظهر التساؤل عليها ولكنني طمأنتها وأخبرتها أنه مجرد إرهاق بسبب العمل ليس أكثر. اضطجعت بجانبها وبجانب "زينب" على فراش غرفتنا محاولًا النوم. وقتها جاء النوم بعد أرقٍ متواصل طوال تلك الليلة السوداء.

استيقظت صباحًا على بكاء "كاترينا" استبدّ بي القلق، سألتها عمّا يبكيها، أخبرتني أن والدها قد تمّ إلقاء القبض عليه أمس ليلًا بواسطة رجال المخابرات السوفيتية. مَادَتِ الأرض بي من الصدمة، لقد فعلوها!!

اتجهتُ إلى الجامعة، ولم أستطع أن أسأل عمّا حدث حتى لا يتم الاشتباه بي، هكذا أمرني السيد "ديمتريف" في حالة حدوث ما حدث، ولكني بطريقتي جمعت أجزاءًا من أحداث الأمس، وكوّنت منها الصورة الكاملة.

لقد اقتحم الجنود مكتب السيد "ديمتريف" واقتادوه بكل قسوة إلى سيارة الأمن بعدما قاموا بتفتيش مكتبه بكل عنف ووحشية، واستطاعوا العثور على مولد الطاقة بالفعل ومعه بعض الأوراق التي توضح التجربة. لماذا لم تحرق ما تبقى يا سيد "ديمتريف".. ها أنت الآن قد صرت في قبضتهم وسيقتادونك إلى معتقل سيبريا الدامي، حيث يتم إلقاؤك في غياهب السجن وتُعامل كالدواب بل أقل منها، لك الله يا سيد "ديمتريف".. سأفتقدك بالفعل.

كانت تلك سنتي الأخيرة في الاتحاد السوفيتي، وسألوني وقتها ما إذا رغبت في الاستمرار بالعمل في الاتحاد كأستاذ بجامعة "موسكو" الوطنية أو جامعة "سان بيترسبرج" أم أعود إلى بلدي مصر حاملًا شهادة البكالوريوس في مجال الفيزياء؟ بالطبع اخترت العودة إلى أرض الوطن.. لم يعد لي ما يبقيني في الاتحاد بعد ما حدث للسيد "ديمتريف" كما كان يجب أن أهرب من قبضتهم، وأن أبعدهم عمّا أحمل من نواة لتجربة السيد "ديمتريف" التي يعلم الله وحده كيف صارت وكيف ستنتهي.

عدت إلى مصر سالمًا حاملًا شهاديّ وشنطتي وابنتي، وبجانبي "كاترينا" زوجتي العزيزة بعد حادثة والدها المفجعة وعلمها بوفاته في المعتقل بسبب ضعفه وعدم تحمله للتعذيب المستمر هناك. لم تعد ترغب في الحياة بالاتحاد مرة أخرى، وأخبرتني برغبتها في العودة معي إلى مصر والاستقرار بها بصورة نهائية.

عدت إلى مصر لتبدأ مرحلة جديدة من حياتي.. صرت فيها أستاذًا جامعيًا في جامعة القاهرة، أحصل على مرتبٍ بالكاد يكفيني، ولكني لا أبالي بتلك المظاهر، يكفيني رضا والدتي ووجود عائلتي بجانبي.

انشغلت في دوامة الحياة، وقبعت أوراق السيد "ديمتريف" في درج مكتبي لسنوات عديدة. نضجت ابنتي "زينب"، وصارت شابة جميلة ورثت البشرة البيضاء والعيون الزرقاء من والدتها، والذكاء والروح المصرية من والدها. كانت كالملاك -رحمها الله- في شكلها وتعاملها مع من حولها، حمدت ربي على هبته الغالية، واستطعت أن أعلمها وأربيها خير تربية وخير تعليم حتى حصلت على مجموع متميز في الشهاده الثانوية ألحقها بكلية الهندسة، وظلت على تفوقها خلال سنوات الدراسة. وفي السنة الثالثة أخبرتني "زينب" أنها تُكِّن مشاعر خاصة لأحد زملائها في الكلية، وأنه طلب منها الزواج. سعدت بذلك الخبر جدًّا، وأخبرتها بموافقتي المبدئية. جاء الفتي في موعده حسبما اتفقنا.. ومن الجلسة الأولى استبشرت به خيرًا وعلمت منه مستوى ثقافته وتعرفت منه على سمعة أسرته، ثم سألته في النهاية عن مستواه المادي، فأنا لا أهتم بالمادة كثيرًا بقدر ما أهتم بمن أمامي، أخلاقه...أفكاره...معاملته للناس...أخبرته بموافقتي على زواجه من ابنتي. علمت بعد ذلك أنه اتخذ قرار زواجه بدون موافقة عائلته بسبب الفرق بين المستوى المادي للأسرتين، وأنه استطاع في النهاية إرغامهم على الموافقة لعدم اقتناعه بوجهة نظرهم ولمدى عشقه لابنتي.

باركت زواجهم وكانت ليلة الفرح من أجمل أيام حياتي حيث رأيت ابنتي تُزف إلى زوجها، وانهمرت الدموع من عينيْ زوجتي، ضاحكتها وقتها وسألتها عن سبب بكائها لتجدني أبكي أنا الآخر فامتزجت ضحكاتنا ودموعنا.

انتقلت "زينب" لمنزل زوجها القريب من منزلنا، فعاد منزل أسرتنا خاليًا لا يجمع بداخله سواي أنا و"كاترينا"... مرّت حياتنا هادئة يقطعها زيارات

"زينب" وزوجها "عبد الرحمن" الأسبوعية، حاملَين معهم البهجة والسعادة لمنزلنا الدافئ.

بعد سنة من زواج "زينب"...اكتشفت "كاترينا" ورمًا بثديها، ذهبنا لإجراء الفحوصات الطبية. جاءت النتيجة للأسف بتأكيد وجود ورمًا سرطانيًا في مرحلة متأخرة في الثدي الأيمن، حلّ الحزن والهم على بيتنا، وبدأت "كاترينا" في جلسات العلاج الكيماوي لمدة ستة أشهر، ثم انتقلت إلى الرفيق الأعلى بعدها تاركةً إياي وحيدًا ببيتنا الذي كان دافئا في فترة من فترات العمر.

وكما يُقال: المصائب لا تأتي فرادى، توفت والدتك "زينب" بعدها بعام ونصف أثناء ولادتك...لم أهنأ برؤيتك كثيرًا فلقد أخذك والدك في كنفه بإيعاز من والدته مستغلًا حقه القانوني في رعايتك، ولم يكف عمك "كمال" -سامحه الله- عن بث سمومه في ذهن والدك ومحاولة إبعاده وإبعادك عني حتى رضخ لضغوط أسرته وانقطع عن رؤيتي أو زيارتي. وقتها انكببت على عملي ودراستي، وبدأت في تكوين مكتبتي وكانت بالفعل تلك المكتبة هي خير جليس لي في تلك السنوات المظلمة من عمري.

بعدما توفي والدك وزوجته في حادثة السيارة.. رغبت في ضمك إليّ، لن أضيع فرصة وجودك معي لمرة ثانية، وبعد مناقشات دامت لمدة سنة بيني وبين عمك "كمال"...ساندني فيها صديقي العزيز المحامي "عبد الله هلال" استطعت أن أقنعه بتربيتي لك حتى تبلغ سن الرشد على الأقل.. وافق على مضض وقتها وظلّ يهددني بالويل في حالة عدم الوفاء بوعدي له.

انتقلت لتسكن معي، وكانت أفضل سنوات عمري تلك التي قضيتها معي، فكانت خير تعويض من الله لي عمّا قاسيتُه وعانيته في سنوات عمري الماضية. استطعت أن أنشئك التنشئة السليمة القويمة كالتي أنشأت والدتك

-رحمها الله- عليها، وكنت أنت الزهرة التي أورقت بين جدران بيتي الذي افتقد للدفء منذ سنوات.

أتذكر استماعنا للموسيقا الكلاسيكية التي أعشقها، والتي استطعت أن أسقيك عشقها أيضًا، وإبداء إعجابك بمكتبتي الزاخرة بشتى أنواع الكتب القيمة. أتذكر اصطحابي لك إلى المسجد، ورحلاتنا العديدة في أنحاء مصرنا الغالية، استطعت أن أرى فيك نفسي التي غابت عني لعقود طويلة. تذكرت فيك طفولتي السعيدة مع والدي الحبيب، لقد كنت يا أدهم أفضل هدية أهداني إياها الله...وكم أحمد الله على وجودك معي تلك الفترة.

ولكن يبدو أن حياتي قد اعتادت على فترات السواد أكثر من اللازم حتى صارت تشتاق إلى الحزن بعد أي فرح يصيبني! فلقد مرّ الوقت بسرعة وقد صرت فتًى في مقتبل الشباب وقد حان أوان الوفاء بالعهد.. شقّ عليّ ذلك بعدما رأيتك تنمو أمامي كل تلك السنوات وتتفتح ورودك وتنشر عطرها في أرجاء حياتي.. ها قد أتى مِنْجَلُ القدر ليقطفك مني. وقتها أتذكر كم رجوت عمك أن يطيل بقاءك معي أو أن يتركك لي، لم أجد منه إلا القسوة في المعاملة وعدم الاحترام لفارق السن على الأقل، فأهانني واعتدى عليّ باللفظ والفعل، واتهمني بالخرف والجنون. وبدأ تحركاته القانونية لضمك إليه نهائيًا، واستطاع بواسطة عصابته من المحامين أن ينتزعك مني بالفعل مع تعهد بعدم الاقتراب منك إلى الأبد..كم أحزنني ما آل إليه الوضع وقتها، لم أنس دموعك التي ذرفتها في ذلك اليوم، ووعدك لي بالعودة في أقرب فرصة. كان ذلك اليوم ختامًا شديد السوء لفترة من أجمل فترات عمري.

ظللت لفترة في عدم توازن، لم أستطع الإفاقة من صدمة فقدانك.. وفي يوم من الأيام كنت جالسًا كالعادة بمكتبي، وأثناء مطالعتي كتابًا من كتبي، انتابني بعض من الشرود. تذكرت جملة قيلت لي من سنين عديدة في أرض بعيدة عن أرضنا، تذكرت اجتماعي بالسيد "ديمتريف" في ذلك القبو المهجور ذي الإضاءة الخافتة، ترددت كلماته في أركان عقلي وكأنني أسمعها الآن.

"...ذلك السر سوف يغير من حياتك إلى الأبد، وأنت الوحيد الذي أراه جديرًا بأن يعلمه معي، وأن تحمل الراية من بعدي إذا توفيت، فهل ستثبت لي جدارتك بالفعل؟"

امتدت يدي لا شعوريًا إلى درج مكتبي الذي تراكم عليه التراب لسنوات، أولجت المفتاح في قفله وأدرته لأجد أمامي الأوراق الأولى لبحث السيد "ديمتريف". ترددت كلماته في ذهني؛ لتتكون بدايات فكرة جنونية في أعماق عقلي فكرة لم أعلم أنها ستغير حياتي إلى الأبد بالفعل، سوف أكمل تلك التجربة، سوف أصنع بنفسي آلة الزمن.

***

-رحمها الله- عليها، وكنت أنت الزهرة التي أورقت بين جدران بيتي الذي افتقد للدفء منذ سنوات.

أتذكر استماعنا للموسيقا الكلاسيكية التي أعشقها، والتي استطعت أن أسقيك عشقها أيضًا، وإبداء إعجابك بمكتبتي الزاخرة بشتى أنواع الكتب القيمة. أتذكر اصطحابي لك إلى المسجد، ورحلاتنا العديدة في أنحاء مصرنا الغالية، استطعت أن أرى فيك نفسي التي غابت عني لعقود طويلة. تذكرت فيك طفولتي السعيدة مع والدي الحبيب، لقد كنت يا أدهم أفضل هدية أهداني إياها الله...وكم أحمد الله على وجودك معي تلك الفترة.

ولكن يبدو أن حيايّ قد اعتادت على فترات السواد أكثر من اللازم حتى صارت تشتاق إلى الحزن بعد أي فرح يصيبني! فلقد مرّ الوقت بسرعة وقد صرت فتًى في مقتبل الشباب وقد حان أوان الوفاء بالعهد.. شقّ عليّ ذلك بعدما رأيتك تنمو أمامي كل تلك السنوات وتتفتح ورودك وتنشر عطرها في أرجاء حيايّ.. ها قد أتى مِنْجَلُ القدر ليقطفك مني. وقتها أتذكر كم رجوت عمك أن يطيل بقاءك معي أو أن يتركك لي، لم أجد منه إلا القسوة في المعاملة وعدم الاحترام لفارق السن على الأقل، فأهانني واعتدى عليّ باللفظ والفعل، واتهمني بالخرف والجنون. وبدأ تحركاته القانونية لضمك إليه نهائيًا، واستطاع بواسطة عصابته من المحامين أن ينتزعك مني بالفعل مع تعهد بعدم الاقتراب منك إلى الأبد..كم أحزنني ما آل إليه الوضع وقتها، لم أنس دموعك التي ذرفتها في ذلك اليوم، ووعدك لي بالعودة في أقرب فرصة. كان ذلك اليوم ختامًا شديد السوء لفترة من أجمل فترات عمري.

ظللت لفترة في عدم توازن، لم أستطع الإفاقة من صدمة فقدانك.. وفي يوم من الأيام كنت جالسًا كالعادة بمكتبي، وأثناء مطالعتي كتابًا من كتبي، انتابني بعض من الشرود. تذكرت جملة قيلت لي من سنين عديدة في أرض بعيدة عن أرضنا، تذكرت اجتماعي بالسيد "ديمتريف" في ذلك القبو المهجور ذي الإضاءة الخافتة، ترددت كلماته في أركان عقلي وكأنني أسمعها الآن.

"...ذلك السر سوف يغير من حياتك إلى الأبد، وأنت الوحيد الذي أراه جديرًا بأن يعلمه معي، وأن تحمل الراية من بعدي إذا توفيت، فهل ستثبت لي جدارتك بالفعل؟"

امتدت يدي لا شعوريًا إلى درج مكتبي الذي تراكم عليه التراب لسنوات، أولجت المفتاح في قفله وأدرته لأجد أمامي الأوراق الأولى لبحث السيد "ديمتريف". ترددت كلماته في ذهني؛ لتتكون بدايات فكرة جنونية في أعماق عقلي فكرة لم أعلم أنها ستغير حياتي إلى الأبد بالفعل، سوف أكمل تلك التجربة، سوف أصنع بنفسي آلة الزمن.

***

10

توقفت لبرهة محاولًا فهم ما قرأته، وبالرغم من إعادتي لقراءة تلك الفقرة الأخيرة، إلا أنني أصابني الذهول بالفعل.. يا ترى هل استطاع جدي فعلها؟؟ أمسكت بالورقة التالية لها وبدأت في استكمال القراءة.

"نظرت لأوراق السيد "ديمتريف" وقد انتابني الحنين لتلك الأيام، وقت أن كنت مساعدًا له في تجربته المذهلة، تذكرت إعدادنا ونقلنا للأدوات في سرية خوفًا من افتضاح أمرنا بواسطة رجال المخابرات السوفيتية، وهذا ما حدث في النهاية للأسف...تُرى هل ندم السيد "ديمتريف" على تجربته تلك؟ هل أخبرهم بطريقة عمل الآلة؟ إن الروس ليسوا بالأغبياء، وعلماؤهم قادرون على فك شفرة الآلة ولكن تجربة السيد "ديمتريف" لم تكن بالتجربة العادية، لقد كانت أعظم تجارب العلم في العصر الحديث. لا أعتقد أن لأحد الإمكانية أن يفك سر تلك الآلة....آمُل ذلك.

أمسكت بأوراق السيد "ديمتريف" تحسست غلافها السميك، ثم قرأت أول ورقة، دمعت عيناي عند قرائتي لكلماته المسجلة بخطه المميز، رحمك الله يا سيدي.. لقد قتلك المعذبون نتيجةً لعلمك وعبقريتك...يا لهم من أغبياء! إنهم بالفعل لا يستحقون وجودك بينهم على نفس الأرض.

ألتهمت عيناي تلك الأوراق التهامًا، وبعد كل ورقة أنتهي من قرائتها، تزداد فكرة صنع الآلة جموحًا، إنني واثق من قدرتي على صنعها، فتلك الأوراق توضح بعناية الأفكار الأساسية للتجربة، بل وتضع عديد من

الأطروحات العلمية مع الحلول المناسبة لها، وبالإضافة لخبرتي المكتسبة من فترة مساعدتي للسيد "ديمتريف" بإمكاني أن أكمل ما بدأه، وأن أصل للمرحلة التي وصل إليها سيدي "ديمتريف" كما أنني الآن قد تقدم بي الزمن، وبالتأكيد فإن التطور الحالي في الفيزياء يرجح كفتي كثيرًا عن حالة الفيزياء وقت أن قام السيد "ديمتريف" باختراع الآلة.

بعد حوالي سبع ساعات متواصلة من قراءة تلك الأوراق وتفنيدها، تمكنت أخيرًا من إنهائها...وضعتها أمامي على مكتبي، وظللت لدقائق أحدق بها شاردًا، أثق بقدرتي فعلًا على صنع الآلة بل وتطويرها، لكن كيف أستطيع ذلك بمواردي المحدودة؟ ستكلفني تلك الفكرة الكثير والكثير من الأموال.. تذكرت وجود بعض الأراضي الزراعية المملوكة لوالدي –رحمه الله– والتي كانت تدر ريعًا شهريًا مقبولًا، قررت أن أبيع تلك الأراضي لتوفير المال اللازم لتجربتي، أسرعت للهاتف..وبالرغم من تأخر الوقت استطعت التحدث مع أحد أقاربي من سكان قريتنا أعلمه أنني قررت بيع الأرض فورًا، وأن يبحث عن أعلى سعر للشراء، وعدني بمعاودة الاتصال بي بعد أيام ليعلمني بنتيجة ذلك.

أغلقت الهاتف وقد انتابني التوتر.. سوف أفعلها. لقد بدأت العجلة في الدوران.

***

جاءني الرد بعد ثلاثة أيام، وأخبرني قريبي وقتها بالسعر المطلوب. وجدت السعر مناسبًا بالفعل، بل إنه أكثر من مناسب، وافقت بلا تردد، وذهبت في اليوم التالي لأنهي الإجراءات المطلوبة وأستلم النقود. بعد أن انتهيت من كل ذلك، أمسكت بالنقود في سعادة.. لقد صار الحلم حقيقة.

عُدت إلى منزلي...سوف يصير معملي وصومعتي الآن.. بدأت في الأيام التالية التجهيز للتجربة. استطعت إحضار بعض المعدات والأجهزة اللازمة، وقمت بتركيبها وتوصيلها للبدء بلا توقف.

استطعت بعد حوالي عشرة أيام أن انتهي من إعداد المعمل.. الآن يمكنني أن أبدأ، اتجهت للأوراق الموضوعة على مكتبي، وأمسكت بها بكل حماس...ذهبت ناحية السبورة السوداء التي وضعتها على الحائط لاستعمالها في كتابة المعادلات وتحضيرها. خططتُ البسملة، ثم بدأت في كتابة المعادلات.

سطرًا بعد سطر.. ازداد احترامي للسيد "ديمتريف" لقد استطاع ذلك العالم الفذ فعلًا أن يستنتج المعادلات الصحيحة لتلك التجربة. لقد سارت التجربة بنجاح شديد، وخلال عامين من الكد والعمل الشاق والانعزال عن العالم من حولي استطعت أن أخترع جهازًا أوليًا يسمح بتطويره بعد ذلك لآلة النقل في الزمكان. ما زلت مقتنعًا بجملة السيد "ديمتريف"، كلمة "آلة الزمن" تعبير خاطئ وجاهل علميًا، نحن علماء لا يمكننا أن نقع في تلك الهفوة.

أمكنني تجربة الجهاز لأول مرة بعدها بأسبوع، أعددت المكان جيدًا، ووضعت قطعة من الورق الصغيرة أمام الجهاز، قمت بضبط إعدادات النقل والإحداثيات، ووضعت المكان النهائي لها على بعد مترين من الجهاز. بدأت في تشغيل الجهاز وبدأ بالفعل في توليد الطاقة، توهجت الورقة بشدة، وبدأت في التذبذب قليلًا، ثم فجأةً.. اشتعلت.

أسرعت لإطفائها خوفًا من أن تمتد النار لباقي المواد من حولها. تحولت الورقة إلى رماد أسود، وتحولتُ أنا معها لكتلة من الغضب والقلق.

لم أدرِ سبب فشل التجربة.. لقد قمت بالإعداد جيدًا لها، وجميع المعادلات تؤكد صحة التجربة، بل إن السيد "ديمتريف" في مرحلة سابقة أمكنه نقل عملة معدنية. انتابني اليأس قليلًا وفكرت في ترك التجربة بالكامل لاعنًا غبائي وجهلي، كيف استطعت أن أقارن نفسي بأستاذي السيد "ديمتريف"؟ وكيف تصورت أنه بإمكاني صنع آلة الزمن تلك؟؟ لم أبالِ بتعريفها الآن سواء كانت آلة زمن أو آله نقل في الزمكان أو حتى آلة لصنع الكعك! في النهاية.لقد فشلت في صنعها.

انتابتني تلك الحالة لحوالي أسبوع، ثم حاولت بعدها تجميع شتات نفسي وتذكر نصائح والدي والسيد "ديمتريف".

لا تيأس.

إن فشلت... حاول كثيرًا حتى تصل لما تريد.

لو كان النجاح سهلًا؛ لنال الجميع ما يصبون إليه.

ثق بالله، وبقدرتك، وأبدأ من جديد.

تذكرت تلك الكلمات، وأقنعت نفسي بها جيدًا. عدت مرة أخرى للبدء في التجربة، قمت بإعادة كل المعادلات أملًا في التوصل إلى نتائج جديدة، استطعت بعد شهر أن أدرك خطأ التجربة. لقد كان السبب هو إهمالي لبعض العوامل الجانبية المؤثرة على المجال المحيط، وبالرغم من تفاهة تلك العوامل –من وجهه نظري– لكنها كانت سببًا في فشل التجربة لأول مرة.

قمت بإعداد التجربة للمرة الثانية، وتأكدت من صحة كل تلك الإعدادات، اتجهت إلى آلة التوليد، وبدأت في وضع قطعة الورق أمام الجهاز، اتجهت إلى لوحة الأرقام وضغطت التردد المناسب، بدأت الورقة في التوهج قليلًا، ثم بدأت مرحلة الذبذبة.

عُدت إلى منزلي...سوف يصير معملي وصومعتي الآن.. بدأت في الأيام التالية التجهيز للتجربة. استطعت إحضار بعض المعدات والأجهزة اللازمة، وقمت بتركيبها وتوصيلها للبدء بلا توقف.

استطعت بعد حوالي عشرة أيام أن انتهي من إعداد المعمل.. الآن يمكنني أن أبدأ، اتجهت للأوراق الموضوعة على مكتبي، وأمسكت بها بكل حماس...ذهبت ناحية السبورة السوداء التي وضعتها على الحائط لاستعمالها في كتابة المعادلات وتحضيرها. خططتُ البسملة، ثم بدأت في كتابة المعادلات.

سطرًا بعد سطر.. ازداد احترامي للسيد "ديمتريف" لقد استطاع ذلك العالم الفذ فعلًا أن يستنتج المعادلات الصحيحة لتلك التجربة. لقد سارت التجربة بنجاح شديد، وخلال عامين من الكد والعمل الشاق والانعزال عن العالم من حولي استطعت أن أخترع جهازًا أوليًا يسمح بتطويره بعد ذلك لآلة النقل في الزمكان. ما زلت مقتنعًا بجملة السيد "ديمتريف"، كلمة "آلة الزمن" تعبير خاطئ وجاهل علميًا، نحن علماء لا يمكننا أن نقع في تلك الهفوة.

أمكنني تجربة الجهاز لأول مرة بعدها بأسبوع، أعددت المكان جيدًا، ووضعت قطعة من الورق الصغيرة أمام الجهاز، قمت بضبط إعدادات النقل والإحداثيات، ووضعت المكان النهائي لها على بعد مترين من الجهاز. بدأت في تشغيل الجهاز وبدأ بالفعل في توليد الطاقة، توهجت الورقة بشدة، وبدأت في التذبذب قليلًا، ثم فجأةً.. اشتعلت.

أسرعت لإطفائها خوفًا من أن تمتد النار لباقي المواد من حولها. تحولت الورقة إلى رماد أسود، وتحولتُ أنا معها لكتلة من الغضب والقلق.

لم أدرِ سبب فشل التجربة.. لقد قمت بالإعداد جيدًا لها، وجميع المعادلات تؤكد صحة التجربة، بل إن السيد "ديمتريف" في مرحلة سابقة أمكنه نقل عملة معدنية. انتابني اليأس قليلًا وفكرت في ترك التجربة بالكامل لاعنًا غبائي وجهلي، كيف استطعت أن أقارن نفسي بأستاذي السيد "ديمتريف"؟ وكيف تصورت أنه بإمكاني صنع آلة الزمن تلك؟؟ لم أبالِ بتعريفها الآن سواء كانت آلة زمن أو آله نقل في الزمكان أو حتى آلة لصنع الكعك! في النهاية.لقد فشلت في صنعها.

انتابتني تلك الحالة لحوالي أسبوع، ثم حاولت بعدها تجميع شتات نفسي وتذكر نصائح والدي والسيد "ديمتريف".

لا تيأس.

إن فشلت... حاول كثيرًا حتى تصل لما تريد.

لو كان النجاح سهلًا؛ لنال الجميع ما يصبون إليه.

ثق بالله، وبقدرتك، وأبدأ من جديد.

تذكرت تلك الكلمات، وأقنعت نفسي بها جيدًا. عدت مرة أخرى للبدء في التجربة، قمت بإعادة كل المعادلات أملًا في التوصل إلى نتائج جديدة، استطعت بعد شهر أن أدرك خطأ التجربة. لقد كان السبب هو إهمالي لبعض العوامل الجانبية المؤثرة على المجال المحيط، وبالرغم من تفاهة تلك العوامل –من وجهه نظري– لكنها كانت سببًا في فشل التجربة لأول مرة.

قمت بإعداد التجربة للمرة الثانية، وتأكدت من صحة كل تلك الإعدادات، اتجهت إلى آلة التوليد، وبدأت في وضع قطعة الورق أمام الجهاز، اتجهت إلى لوحة الأرقام وضغطت التردد المناسب، بدأت الورقة في التوهج قليلًا، ثم بدأت مرحلة الذبذبة.

كاد قلبي أن يتوقف هلعًا من النتيجة، إنني الآن بالمرحلة الحرجة التي يبدأ فيها الجسم أن ينتقل عبر ممرات دودية مجهرية لا تُرى، تتجمع معًا لصنع ممرًا دوديًا أكبر يمكنه نقل الجسم من مكان لآخر. بدأت الورقة في التقلص...إنها تنتقل!!

أسرعت إلى مكان وصول الورقة، وقد بدأت أجزاء من الورقة في الظهور.. لقد نجحت التجربة، إنها تنتقل! كدت أطلق صرخة فرح عارمة عندما انقطع المولد عن العمل لتنطلق الصرخة بالفعل، ولكنها محملة بغضب لا نهائي!

***

إذن لقد كان نقص الطاقة هو السبب في انقطاع عملية النقل. لا مشكلة.. بدأت في البحث عن مصدر طاقة أكثر قوة من مولد الجازولين البدائي ذلك، وقتها كانت المولدات الكهربية القوية باهظة الثمن قليلًا بالنسبة لميزانيتي المحدودة. حاولت في تلك الفترة أن أستفسر عن ذلك النوع من المولدات حتى عثرت بالصدفة عن مولد مستعمل لدى عالم زميل لي في الجامعة، رجوته أن يعيرني إياه فوافق بعد تردد وعدم اقتناع. بعدها بثلاثة أسابيع توفي ذلك الزميل، ذهبت إلى عزائه بصحبة لفيف من الزملاء لتقديم الواجب. بعد أن انتهى العزاء أنتحيت جانبًا بأخ الفقيد وحادثته في موضوع المولد الذي استعرته من أخيه المرحوم.

أجابني بكل عصبية: "مولد ايه؟ خلاص يا أستاذ... مش عاوزين حاجة من الفيزيا دي.. مش كفاية إنها كانت السبب في موت أخويا! هو اللي جراله دا كان بسبب ايه؟ بسبب تعبه ونرفزته من الشغل في الفيزيا...واهو دا اللي أخدناه منها"

وأكمل كلامه بالسب واللعن للفيزياء والفيزيائيين منذ أول التاريخ وحتى الآن، هممت بالرحيل قبل أن تنالني لعناته شخصيًا، حمدت الله على جهل بعض الناس، وكما يقول المثل "مصائب قوم عند قوم فوائد"، لقد استطعت الاحتفاظ بالمولد بالرغم من إلحاحي الشديد على عائلة المرحوم، لقد كان ذلك توفيقًا إلهيًا صرفًا، فلولا المولد ما كنت استطعت إكمال تلك التجربة....حمدًا لله.

***

عدت إلى المنزل وكلي تشوق لإكمال التجربة. أعددت المولد جيدًا وتأكدت من توفر الطاقة اللازمة للتجربة، أعدت ضبط الإعدادات للمرة الثالثة، ولكني في تلك المرة كنت متأكدًا من نجاح التجربة -بإذن الله- وضغطت على زر البدء، هدرت الآلة بادئةً صنع الممرات الدودية اللازمة للنقل، وتابعت بشغف تفتت الورقة وبدء نقلها، انتقلت إلى الموضع الآخر، وأمامي تتكون الورقة بالفعل، استمرت تلك العملية حوالي عشر دقائق كاملة، حتى أعلنت شاشة الجهاز انتهاء النقل. نظرت إلى الورقة بذهول... أفعلتُها حقًا؟!

أمسكت بالورقة بين أناملي وتأملتها كمن يتأمل عشيقته، إنها هي بالفعل.. بنفس ملمسها وأطرافها الحادة، لقد نجحت التجربة بالفعل!!

سجدت لله ركعتيْ شكرٍ، لقد فعلتها.. أكملت تجربة السيد "ديمتريف" بنجاح، بل إنني وصلت إلى نتائج تفوق تلك النتائج التي وصل هو إليها. كافئت نفسي براحة لمدة أسبوع أستمتع فيها بزيارة الحدائق من حولي، لقد انعزلت تلك الفترة السابقة عن أي مظهر من مظاهر البشر، كنت كالراهب في صومعته، تاركًا العالم من حولي في صراعاته ومشكلاته التي لا تُحل، استطعت إنجاز ما لم ينجزه بشر من قبل. أخذت أتطلع إلى وجوه الناس من حولي، سألت نفسي ماذا سيكون رد فعلهم إذا امتلكوا الوسيلة للسفر في الزمن؟ هل يمكن تصحيح أخطاء الماضي؟ وإذا أصلحوها.. فما

هي النتيجة، هل نضمن عدم تكرار تلك الأخطاء؟ كم من قرارٍ اتخذناه وندمنا بعد ذلك! كم من شخص فقدناه ونأمل أن نراه أو نلمسه لثوانٍ معدودة مرة أخرى!

عندما جالَ ببالي ذلك الخاطر تذكرت أحبابي الذين فقدتهم، تذكرت أبي -رحمه الله-، وأبي الروحي السيد "ديمتريف" مرورًا بأمي الحبيبة "كاترينا" حبيبة عمري، ثم "زينب" تلك الزهرة التي أنعشت حياتي بعبيرها.

تأملت الوجوه السعيدة لأفراد أسرة مكونة من أربعة أفراد مرت بجانبي وقتها.. تذكرتك يا أدهم وقتها، وتذكرت وقتها لأول مرة أنني صرت بالفعل وحيدًا بعيدًا عن تجربتي ومكتبتي وانشغالي بعملي. أنا وحيد، ليس لدي من أعوله أو من يهتم بوجودي، بل إنني إذا توفيت بشقتي، فمن الأكيد أنه لن يعلم أحد بموتي إلا إذا فاحت رائحة جثت!

انزعجت من ذلك الخاطر، وحاولت إبعاد تلك الأفكار السوداء عن رأسي، وانشغلت ببعض الأفكار الفلسفية التي ناقشني فيها السيد "ديمتريف" في مرة من المرات بخصوص موضوع السفر في الزمن. وقتها أتذكر حواري معه في ذلك القبو، سألني عمّا سأفعله إن امتلكت القدرة على السفر في الزمن، أجبته حينها:

- سوف أعود للماضي بالطبع لأغير أخطاء التاريخ، سوف أحاول إلغاء الحروب والكوارث لأنقذ الملايين من ضحايا تلك الحروب.

ابتسم السيد "ديمتريف"،وقال: "إنك تملك قلب ملاك يا عزيزي جمال. نواياك سليمة، ولكن للأسف لا يمكننا المخاطرة بذلك. من القواعد الرئيسية التي يجب أن تعلمها أنه لا يجب عليك بأي حال من الأحوال أن تؤثر على مجرى الزمن بأي تغيير، اكتفِ بالمشاهدة فقط. يكفي وجودك في

زمن مغاير عن زمننا، أي تغيير زائد في الماضي يمكنه أن يلقي بظلاله على الحاضر"

تنهد في أسًى ثم أكمل: "تخيل لو أنك تسببت بدون قصد في مقتل أحد أجدادك أو منعت مقابلة بين جدك، ومن ستكون زوجته بعد ذلك! إنك تهدد وجودك نفسه، حينها ستختفي فورًا من الوجود، وكذلك بالنسبة لأي شخص آخر في العالم بما يحمل من تأثير على التاريخ. تخيّل لو أنك أذيت من سيكون والدًا لقائدٍ عظيم فيما بعد! للزمن قواعد خطيرة لا يمكن التهاون بها، وإلا حدث ما لا يُحمد عقباه"

وقتها تنبهت بالفعل لتلك القاعدة الخطيرة.. ومع مرور الأيام تعلمت أكثر وأكثر عن قواعد الزمن، وتناقشت مع السيد "ديمتريف" عن العديد من إشكاليات السفر في الزمن، أجابني وقتها بجملة رائعة ظلت في بالي دائمًا وقت عملي بالتجربة، قال:

"كل من يشكك بنظرياته في موضوع السفر في الزمكان اعتمد في كلامه على النظرية فقط، لم يحاول تجربة تلك النظرية على أرض الواقع، العلماء يتفلسفون أحيانًا بينما هم أجدر الناس بالتجربة، وها نحن على أرض الواقع نثبت أنه يمكننا ذلك إذا جربنا واستمررنا في تجاربنا حتى نصل"

منحتني جملته تلك الدفعة المعنوية اللازمة لإكمال أبحاثنا في تلك التجربة حتى حدث ما حدث، وانتهى كل شيء. ولكنني الآن بما وصلت إليه من تقدم قادر على صنع الفرق، قادر على الوصول لأبعد مما وصل إليه السيد "ديمتريف" يا له من شرف، ويا له من فخر!!

***

قطع قرائتي للمذكرات صوت رنين هاتفي المحمول. وضعت الأوراق بعناية في الصندوق وقمت للرد على الهاتف، فإذا به صديقي "صبحي"، لهفتُ للرد عليه:

- ألو...أيوا يا صبحي

- ألو... ازيك يا أدهم عامل ايه؟

- تمام الحمد لله...هاه..طمني كده ايه الأخبار؟

- الأخبار تمام...الحمد لله أنا كويس

أجبته بسخرية: "يا بني وأنا مالي بأخبارك، أنا أقصد أخبار موضوع الآثار أيه؟ الدكتور قال لك ايه؟"

- اااااااه..الآثار...لأ أنا لازم أقابلك علشان أقولك.

أثار ذلك حنقي، سألته عن السبب.. أجابني أنه يرغب في جعل السبب سريًا. لم أكن في بال يسمح لي بمزيد من الأسرار. استمر في إصراره وطلب مني موافاته لإحدى المقاهي التي طالما اجتمعنا عليها قديمًا في فترة المراهقة، وافقت على طلبه بنفاد صبر، وذهبت لغرفة جدي لارتداء ملابسي والنزول إلى "صبحي". أثناء مروري في الصالة نظرت إلى صندوق المذكرات على مكتب جدي. انتابني مزيد من الشوق لمعرفة ماذا حدث بعد ما قرأت، ولكنني صبرت نفسي بالأمل في سرعة العودة وألا أضيع وقتًا مع "صبحي" سوف أعلم منه ما يريد إخباري به ثم أعود فورًا لمكتب جدي. نظرت نظرة أخيرة للمكتب ثم أغلقت باب المنزل، وذهبت إلى "صبحي".

اتجهت إلى ناصية الشارع المقام به ذلك المقهى القديم، وجدت "صبحي" منتظرًا على بعد أمتار من المقهى، اتجه إليّ في عجل، وطلب مني إغلاق عيني. لم أحتمل تلك التصرفات الطفولية. ألحّ عليّ كعادته، اضطررت لإغلاق عيني والرضوخ له آملًا في الانتهاء من ذلك السخف. أمسك بيدي وأرشدني للمقهى، ثم طلب مني أن أنظر أمامي.. يا إلهي! لم أصدق ما أراه أمامي... كانت مفاجأة بالفعل!!

***

11

"سربر!!!!!!!!!!يز!!"

قالوها بكل سعادة...لأرد عليهم أنا بكل دهشة:

"يا ولاد الـــــــــ........"

كانت بالفعل مفاجأة غير متوقعة على الإطلاق. لقد تمكن "صبحي" بطريقة ما أن يجمع أصدقاء الطفولة مرة أخرى، "أحمد ياسين"، "خالد عبد الرحيم"، "شريف البهنساوي"، "يوسف مدكور" جميعهم أمامي وعيونهم تنبض بالفرحة والانفعال.

انطلقتُ نحوهم وكأنني أسابق الرياح، احتضنوني واحدًا تلو الآخر بكل شوق ولهفة، دمعت عيوننا جميعًا غير مصدقين ما نراه، بعد ما يقرب من عشر سنوات من الفراق، ها نحن نجتمع مرة أخرى. اختلفت هيئاتنا قليلًا نضجنا وصرنا رجالًا، ولكن لم تتغير شخصياتنا ولا عقولنا، ما زلنا نحمل في قلوبنا روح المراهقين الشغوفة الثائرة.

بعد فاصل طويل من الأحضان والقبلات وتبادل السلام الحار، ارتمى كل منا على كرسيه في إرهاق، كانت شدة اللقاء فوق قدرتنا على التحمل. إنني أحلم، بالتأكيد أنا في حلم.. حلم جميل.. أصدقائي الأعزاء أمامي الآن...كم من أحاديث أرغب في مناقشتها معهم؟! وكم من

ذكريات نتذكرها؟! أتذكر اجتماعنا في الفصل في المرحلة الإعدادية، كنا شلة واحدة يعلمنا جميع معلمي المدرسة بالاسم، كنا بالفعل طلبة مشاغبين، ولكننا أيضًا كنا ممن ينالون الدرجات النهائية في أغلب المواد، كنا لغزًا كبيرًا في عقول المعلمين ومن لم يأبه منهم بنا اقتنع أن الغش هو السبب في تفوقنا. لا يمكنني إنكار أننا كنا نغش معًا قليلًا كعادة أغلب الطلاب في أي مكان على سطح الأرض، لكننا بالفعل كنا متفوقين دراسيًا. أنعم الله علينا بعقول متوهجة، استعملناها في الشغب وفي الدراسة أيضًا؛ لذلك استمر تفوقنا واستمرت شهرتنا طوال فترة الإعدادية ثم الثانوية بعدها. فرّقت بيننا لجان الامتحانات بسبب اختلاف الحروف الأولى من أسمائنا، ولكن لم يمنعنا ذلك من أن تستمر صداقتنا داخل وخارج المدرسة.

أتذكر لهونا ولعبنا كرة القدم بشوارع شبرا المتفرعة، شهدت تلك الشوارع مهاراتنا المتنوعة بدءًا بمراوغة الكرة ثم اللاعبين ثم أصحاب المحال التي تنالها ركلاتنا الفائقة للكرة، كنا شياطين في هيئة عدة مراهقين، وإن كنت لا أرى فرقًا بين الشياطين والمراهقين!

أتذكر تناولنا للشطائر في محلات شارع شبرا المحبب والأثير إلى قلبي دائمًا، أتذكر تجولنا في دوران شبرا مستمتعين بتناول المثلجات في صيف أغسطس المشتعل بينما يسير بجانبنا المواطنين الغارقين في بحور العرق وتحترق حلوقهم بنيران الظمأ.

أتذكر حبي الأول.. تلك الفتاة في مدرسة البنات المجاورة لمدرستنا، أنتظر خروجها من مدرستها لأراها، وبكل براءة أمر بجانبها لعل سهم كيوبيد يصيبها فتراني، ولكن للأسف ظل ذلك الحب مخبئًا في قلبي حتى مرت السنين وتباعدت المسافات فظلت تلك الفتاة في جزء متوارٍ من ذاكرتي... يا ترى أين هي الآن؟ وماذا صارت؟ وهل تزوجت أم ما زالت

عزباء؟ إنني حتى لم أعلم اسمها أو أين تسكن! لقد كانت مشاعرنا جميعًا في قمة البراءة في تلك الفترة حتى صرنا شبابًا وانزاح غطاء البراءة عن عيوننا فرأينا العالم من حولنا على هيئته الحقيقية.

أتى النادل بالمشروبات الساخنة وأخذ كل من الجالسين كوبه وبدأ في ارتشافه باستمتاع، تأملت وجوههم في تأثر.. على جانبي الأيمن يجلس "صبحي" بشعره المجعد وبنيته الواهنة قليلًا، ثم "أحمد" ببشرته البيضاء وشعره الذهبي"الأمريكاني" كما نحب أن نطلق عليه منذ أن عرفناه، بجانبه "خالد" و"يوسف" المتلازمان دائمًا كالتوأم السيامي؛ "خالد" يميل إلى البدانة قليلًا، و"يوسف" ممشوق القوام، ولكني دائمًا أعتبرهم كالأخوين لتلازمهم دائمًا، وبالرغم من اختلاف طباعهم قليلًا، حيث إن "خالد" دائمًا يميل إلى الهزر والضحك بصوت عالٍ، كان "يوسف" عصبيًّا بعض الشيء، ولكن وقت أن يجتمعا تذوب الفوارق فأشعر بالفعل وكأنهم توأم لأم واحدة وأب واحد. ثم على جانبي الأيسر عبقري الشلة "شريف" أعز أعضاء الشلة إلى قلبي، ربما لتشابه اهتماماتنا وطريقة تفكيرنا ويجمع بيننا حبنا للقراءة، صار من ذوي العيون الأربع.. تلك العوينات التي يرتديها الآن أعطته مظهرًا أكبر من عمره الحقيقي قليلًا، ولكنه كما هو وقور هادئ مبتسم دائمًا.

بدأ الحديث بيننا وتحدث كل منهم بشكل مقتضب عن أحواله الاجتماعية الآن.."شريف" سيتزوج خلال شهرين، باركت له بكل فرح بمجرد أن قالها، وأكمل الباقون كلامهم وابتسامتي تتسع وقلبي يرقص طربًا لهم، إنهم لي كإخوة بالفعل، ليسوا مجرد أصدقاء أو زملاء دراسة. وأخبرني "يوسف" أنه قد تقدم لخطبة إحدى زميلاته في العمل حيث يعمل "يوسف"

في شركة تجارية شهيرة كمحاسبين إداريين، ليعقّب "خالد" على كلامه ضاحكا:

"وانا بأه مش معقولة اسيب يوسف لوحده كده"

سألته بسخرية: " ايه....خطبت خطيبة يوسف؟"

أجابني: "لا وأنت الصادق...خطبت أختها"، ثم ارتج جسده البدين من الضحك، ضحكنا جميعًا وسألته وسط ضحكاتي التي لم أستطيع إيقافها: "لأ بجد...خطبت أختها فعلًا؟"

أجابني: "آه والله...يوم ما يوسف راح يخطب أميرة، رحت معاه زي كأني أخوه..شفت أخت العروسة حبيتها من أول نظرة... بنت أمورة كده ودبدوبة زيّ...داحنا لما نتجوز هنخلف أفيال مش أطفال"

كانت قد قاربت ضحكاتي على الخفوت والانتهاء، فجاءت تلك الجمله الأخيرة لتبدأ ضحكاتي وضحكات باقي أفراد الشلة في التزايد مرة أخرى حتى لفتت ضحكاتنا أنظار الجالسين من حولنا.

دمعت عيني من شدة الضحك. بدأت أجسادنا في الهدوء بعد ذلك الفاصل المثير للضحك، وأكملنا حديثنا والسعادة تتراقص على وجوهنا، سألت "أحمد" وقد حاولت إضفاء بعض الجد على نبرة صوتي:

"وأنت يا أمريكاني مش شايف في أيدك دبلة ولا حاجة، هو الامريكان مش بيلبسوا دبل ولا ايه؟"

ضحك "أحمد" ثم أجابني: "لا يا عم....بيلبسوا زي بقية الناس.. بس أنا مش ناوي ارتبط خالص".

أجبته بكل سخرية وقد تصنعت الدهشة: "يا نهار أسود!! أنت لا مؤاخذة.. شاذ ولا ايه؟"

انبعثت ضحكاتنا تلك المرة أعلى من أي مرة سابقة، أجابني "أحمد" بسرعة:

"الله يخرب بيتك، هتوديني ف داهية. لأ يا عم الحمد لله أنا تمام اوي.. هاهاهاها...أنا بس اللي مش ناوي دلوقتي على الموضوع دا خالص.. أكون نفسي الأول وبعدين أبدأ أفكر في الحوار دا"

أطلق "خالد" بعض القفشات والنكات فأضحكنا مرة أخرى لعدة دقائق. انتهى ضحكنا بصعوبة في تلك الجلسة... أردفت بكل واقعية:

"وحشتني اللمة دي يا ولاد والله".

استمرت نقاشاتنا حوالي الساعتين، تناقشنا في كل ما يمكن أن يتخيله المرء كموضوع للنقاش، تحدثنا عمّا حدث لكل منا خلال العشر سنوات التي فرقت بيننا، ولما علموا بخبر وفاة جدي حزنوا كثيرًا لوفاته فقد كان يعاملهم جميعًا كأنهم أحفاده مثلما كنت حفيده، واسوني واعتذروا عن عدم حضور العزاء، حاولت تغيير دفة الحديث، لم أرغب في التطرق لأي موضوع يحزنني في تلك الجلسة، لم أرغب في الخروج من حالة النشوة التي أعيشها وسط أصدقائي الأعزاء وكأنني وصلت لحالة "النيرفانا" المطلقة التي يصل إليها كهنة البوذية.

تذكرت ما قرأته في مذكرات جدي، فكرت في أن أستشير "شريف" في موضوع السفر في الزمن، فلقد كنت تائهًا بالفعل، مشتتًا بين صعوبة تحقيق النظرية وما كتبه جدي في تلك الأوراق من إثباتات لقدرته على صنع آلة الزمن، اتجهت إلى "شريف" وسألته:

"بقولك يا شريف...ايه رأيك في حوار السفر في الزمن؟"

قطب "شريف" جبينه كعادته عندما يركز في موضوع ما، وأجابني في هدوء:

"السفر في الزمن! اشمعني الموضوع دا يا أدهم؟"

أجبته: "يعني...لقيت نقاشات على النت مكتوبة بخصوص الحوار دا.. وفيه ناس بتأكد إنه ممكن يحصل..لكن أنا مش مصدق بصراحة"

رد عليّ بصوت هادئ: "بص يا أدهم، الموضوع دا معقد. أغلب الناس بتقول فيه كلام كتير، ومحدش عارف الصح فين.. شوية يقولوا لو قدرنا نوصل لسرعة الضوء ساعتها نقدر نكسر حاجز الزمن ونقدر نسافر للماضي أو للمستقبل...وشوية يقولوا نقدر نسافر للمستقبل بس..وشوية يقولوا منقدرش نسافر أساسًا وانسوا الموضوع، محدش عارف يتوصل لحاجة في النظرية دي"

سأل "يوسف" وقد بدأت عصبيته في الظهور: "أنا مش فاهم حاجة، يعني كده فيه سفر ولا مفيش؟"

أجابه "شريف": "مانا قلت: محدش عارف.. المشكلة إن النظرية دي ليها نظريات مضادة بتدمرها من الأساس. يعني دلوقتي لو سافرت في الماضي عشر سنين فاتت هيبقى فيه نسختين مني نسخة حالية ونسخة اللي لسه عيل صغير... ودا نظريًا مينفعش إن نفس الكتلة تتواجد مرتين في بُعد واحد"

بدا الذهول مرتسمًا على وجه "خالد".. رأيت ذلك فلم أستطيع كتمان ضحكتي.. لقد كان للذهول على وجه "خالد" البدين الطفولي تأثيرًا كوميديًا لا يوصف...سألته ضاحكًا:

"ايه يا بني مالك؟ أيه الدهشة اللي أنت فيها دي؟"

أجابني "خالد" في ذهول: "بخلاف إني مش قادر أفهم أوي كلامكم التقيل دا...أنا دلوقتي لو سافرت في الزمن..أقدر أحضر فرح أبويا وأمي؟؟ يا لهوي يا جدعان!!"

أخرجتنا جملته تلك من حالة الحوار العلمي التي انغمسنا فيها، حتي أن "شريف" نفسه بوقاره المعتاد لم يستطع كتم ضحكاته تلك المرة، وأجابه بعدها بصعوبة:

"كح كح....بخرب بيت شيطانك يا خالد....بس تصدق.. كلامك ينفع والله...كان فيه فيلم أجنبي اتعمل منه تلات أجزاء اسمه "العودة للمستقبل"..البطل فيه راح للماضي علشان يشوف والده ووالدته في شبابهم، بس هنا السؤال المهم.. هل لو لا قدر الله اتدخل في لقائهم وقدر يمنعهم من أنهم يعرفوا بعض.. كده مش هيتولد أساسًا؟ يبقى ازاي هيبقى موجود علشان يسافر في الماضي؟"

ذكرتني جملته تلك بنفس المثال الذي طرحه السيد "ديمتريف" على جدي أثناء مناقشاتهم بالقبو السري، عدت بانتباهي لحديث "شريف" حيث ما زال مستمرًا في طرح المشاكل التي تواجه موضوع السفر في الزمن.

"أينشتاين" أثبت إن كل ما الجسم سرعته بتزيد، الزمن بيتباطئ. يعني لو أحمد وأدهم إخوات توأم عندهم عشرين سنة مثلًا.. لو أدهم ركب صاروخ بيطير بسرعة الضوء وفضل في الصاروخ دا لمدة سنه مثلًا... وبعدين رجع علشان يقابل أخوه أحمد، هيلاقي أن أحمد مات بالشيخوخة من زمان أساسًا، وأدهم يبقى عمره زاد سنة بس! ودا لأن الزمن بيتباطئ بزيادة السرعة، يعني كل ما سرعتك بتزيد كل ما الزمن

بيمر ببطء لحد ما توصل لسرعة الضوء...لو وصلت لسرعة الضوء الزمن بيقف ومبيتحركش بالنسبة لك...فهمت حاجة؟"

أجاب "خالد" بصدق: "لأ برضه"، ثم ضحك عاليًا وقد ارتج جسده من تأثير ضحكاته تلك، ولكن الحوار لم يكن قد انتهى فلم يشاركه أغلبنا الضحك ككل مرة. لقد انتبهنا لكلمات "شريف" تلك المرة، كنت قد بدأت في فهم ما يقوله "شريف"، فسألته:

"طب ليه ميكونش كل الكلام النظري دا كلام غلط علشان محدش جرب فعلا؟ ليه ميكونش فيه حد قدر إنه يعمل آلة الزمن ويسافر بيها للماضي أو المستقبل؟"

أجابني "شريف": "لأ هو من ناحية التجريب، فيه ناس حاولت وجربت فعلًا... عندك مثلًا العالم الأمريكاني "كيب ثورن" من أشهر العلماء في الموضوع دا، وليه دراسات كتيرة بخصوص السفر في الزمن، وليه تصور خاص بآلة الزمن بأنه يخلق حاجة زي ممر تنقل اللي يدخله من زمن لزمن تاني، وسماه بالممر الدودي، ودا عن طريق تحطيم الذرة في المعمل في جهاز تعجيل للجسيمات، وعن طريق نبضات معينة من الطاقة يقدر يتحكم في الممر دا ويشكله بشحنات كهربية تحدد مدخل ومخرج الممر دا وبعد كده يكبره لحد ما يقدر يخلي إنسان كامل يمر من الممر دا"

تحفزت حواسي عند سماعي لتلك الكلمات الأخيرة.. لقد كان وصفه مشابهًا كثيرًا لوصف تجربة السيد "ديمتريف" ومن بعده جدي "جمال" – رحمه الله–، إذن فالموضوع يمكن تحقيقه بالفعل!!

سألته بكل لهفة: "طب والنتيجة كانت ايه؟"

أجابني هازًا كتفيه: "فضلت نظرية للأسف.. التجربة منجحتش أوي، والعلماء اعتبروها خيال. وعندك عالم كبير زي "ستيفن هوكنج" بكل نظرياته عن الثقوب السوداء ونشأة الكون، قال إن السفر في الزمن ممكن يكون على المستوي الميكروسكوبي، لكنه استنكر إنه ممكن يبقى فيه انحناء في الزمكان يسمح بنقل إنسان كامل...وإنه احتمال الفكرة دي يساوي صفر"

قال "يوسف" بكل عصبية: "خلاص يا جماعة فككوا من الموضوع دا، كفاية الخيال العلمي اللي هيلحس دماغكو وتعالوا نلعب دور طاولة ولا دور شايب". أعلنت جملته تلك نهاية حوارنا في موضوع السفر في الزمن.. لأظل أنا في حيرتي، لم أُرضِ تلهفي لمعرفة حقيقة تلك النظرية...ألتفت بنظري لـــ"أحمد" فوجدته منشغلًا في الكتابة على هاتفه المحمول...سألته:

"يا ترى بأه ايه اللي كان واخدك مننا واحنا بنتناقش في المواضيع المعقدة دي؟"

قطع سؤالي تركيزه ليسألني بدهشة عمّا أقول.. قام "خالد" بسرعة مقارنةً بجسده البدين مختطفًا الهاتف من يد "أحمد" بشكل طفولي.. نظر إليه لثوانٍ ثم قهقه بصوت مرتفع كعادته..ومن وسط قهقهته استطعنا تمييز كلامه:

"بأه دا اللي مستني يكون نفسه الأول...هاهاهاهاها...الباشا قاعد يكلملي بنات على النت هههاهاها، شوفوا يا عالم الأستاذ اللي عامل نفسه عاقل ومش بيفكر في المواضيع دي. هاهاهاهاهاها. يا واد يا خلبوص..طول عمرك حتفضل زير نساء"

عادت ضحكاتنا للوجود بصوت عالٍ مرة ثانية، واختطف "أحمد" الهاتف من يد "خالد" في مرح متظاهرًا بضربه على كتفيه.

استمرت جلستنا حتى منتصف الليل ما بين التسامر والتضاحك ولعب الطاولة حتى انتبهنا أننا أصبحنا الوحيدين بالمقهى، فقررنا الرحيل على وعد باللقاء مرة أخرى خلال أيام، ودعتهم جميعًا بالقبلات والأحضان بعد أن تبادلنا أرقام هواتفنا الجديدة.

عدت إلى المنزل وقد قتلني الإرهاق والتعب. أسرعت إلى مكتب جديـــد وجدت أوراقه كما كانت، لكن إرهاقي منعني من مواصلة القراءة...فعدت إلى غرفة جدي وارتميت على الفراش بملابسي كما أنا.

قبل أن أغرق في النوم.. ارتفع رنين هاتفي المحمول، هرعت للرد في قلق..وجدت رقم "صبحي" يرتسم على الشاشة، ضغطت زر الرد فانبعث صوت "صبحي" من الهاتف قائلًا:

"كده يا بني!! نسيت أقولك ايه اللي حصل لي مع الدكتور عندنا في الكلية بسبب آثارك دي"

12

ذكرتني جمله "صبحي" بالسبب الرئيسي لنزولي اليوم من المنزل، ذلك السبب الذي أنساني إياه لقاء أصدقائي القدامى، فأجبته بلهفة:

– آه صحيح... عملت ايه مع الدكتور زميلك دا؟

أجابني: "أولًا: هو رئيس القسم بتاعنا في الكلية مش زميلي، ثانيًا: أنا كنت هروح القسم بسببك يا جدع"

سألته في نفاد صبر: "خلصني يا صبحي...حصل ايه المهم؟"

رد قائلًا: "ماشي...رحت له ووريته الصور، بعد ما اتفرج عليهم كويس، قام اندهش أوي وزعق لي إني ازاي اسمح لنفسي إني أصور آثار مسروقة، وكان ناقص يطلب لي شرطة الآثار يا عم. ولما هديته وقولتله إني لقيت الصور دي على النت وسألته على معنى كلامه، قال لي إن الآثار اللي في الصور دي أصلية جدًا وخصوصًا الخوذة الحربية لأنها نادرة جدًا ومن الحاجات القليلة اللي باقية من زمن الأسرة البطلمية، وبالتحديد دي كانت الخوذة الحربية اللي بيرتديها الجنود البحارة في معركة "اكتيوم" البحرية سنه 31 قبل الميلاد"

سألته: "طب والوسام العسكري دا؟ مقالش تبع ايه؟"

أجابني: "دا بأه وسام حربي من زمن "هتلر"، كان بيلبسه جنود الحراسة الخاصة في فترة الربع الأول من القرن العشرين، بس المشكلة إن الوسام دا مينفعش يتجاب من مصر لأنه مش من ضمن الأوسمة والنياشين الخاصة بالضباط اللي نزلوا مصر في الحرب العالمية التانية ،يعني الوسام دا متجاب من ألمانيا نفسها"

صمت قليلًا ثم أكمل:

"بس في النهاية الدكتور أصرّ على إن القطع دي ممكن متقلده ما دامت متجابه من النت، يقصد إنها مش مضمون أصلها وممكن تكون متزورة بعناية. علشان كده أنا بقترح إننا نجيب له القطع نفسها فعلًا...ايه رأيك؟"

أجبته في سرعة: "لأ...انسي الفكرة دي خالص يا صبحي.. خلاص أنا هشوف الموضوع دا بنفسي. شكرًا ليك تعبتك معايا في الحوار دا". وأغلقت الهاتف بعدها منعًا لاستدراكات صبحي اللانهائية.

زادت كلمات "صبحي" من حيرتي، ذلك الدكتور يؤكد صحة تلك القطع الأثرية وإن ساورته بعض الشكوك، والمشكلة الكبرى في الأزمنة التي تنتمي إليها كلتا القطعتين؛ إحدهما من قبل الميلاد والأخرى منذ حوالي قرن كامل...لم يجل ببالي إلا فكرة واحدة.. ما كتبه جدي صحيح مئة بالمئة...ولكن كيف؟!

كل من حولي وكل ما سمعته وقرأته من تصفحي وقراءاتي، أثبت خطأ نظرية السفر في الزمن، والجميع يشرح وجهة نظره بعديد من الدلائل المؤكدة والمقنعة بالفعل، وبينما تتواجد كل تلك النظريات في كفة الميزان، تقبع كلمات جدي الحبيب في الكفة الأخرى. تلك الأوراق تثبت وجود تلك النظرية ونجاحها، ولكن كيف لم أنتبه لذلك؟؟ ما قرأته حتى الآن

يشرح كيفية عمل الآلة واستخدامها كوسيلة نقل في المكان.. ما الدليل على نجاح الآلة ووصولها لمستويات أخرى؟ لماذا أسبق الأحداث دائمًا؟ سأعود غدًا في الصباح لقراءة ما كتبه جدي في تلك الأوراق؛ علّها تأتي بالخبر اليقين.

***

استيقظت في اليوم التالي، وإرهاق الأمس واضحًا على وجهي، استحممت بسرعة وخرجت لإحضار إفطاري. عدت إلى المنزل وبدأت في إعداد وجبة الإفطار الشهية كعادتي في الطهي، أفسدت كمية كبيرة من مستلزمات الإفطار، واستطعت إنقاذ ما تبقى لتصير بعض اللقيمات هي وجبة إفطاري الرائعة.

انتهيت من إعداد جرعتي اليومية من مشروب النسكافيه الدافئ، وخرجت إلى الشرفة لأول مرة منذ أن أتيت لبيت جدي...أثارني دفء أشعة الشمس الذهبية عند ملامستها لبشرة يدي، وأقنعتني بقضاء صباحي في تلك الشرفة متأملًا الشارع من حولي ومراقبًا للمارة وهيئاتهم المتباينة.. تُرى فيما يفكرون؟ هل يحلمون بغد أفضل أم انتابهم اليأس كأغلب من حولهم؟ وهل تمنى ولو واحد منهم أن يغير ماضيه أو مستقبله؟وإذا امتلكوا الوسيلة لذلك..فهل يجرؤ المرء أن يفعلها؟ هل؟!

شردت في أفكاري تلك، لأجد كوب النسكافيه قد فقد سخونته تمامًا، وأني ما زلت واقفًا شاردًا كما أنا.. تأففت وذهبت لإعداد كوب آخر من النسكافيه، ولكن تلك المرة لن أشرد، فتلك المرة سأقرأ مذكرات جدي لأكمل تلك الرحلة العجيبة التي صرت فيها مسافرًا بغير إرادتي.

أمسكت بالأوراق وعدت لقرائتها مستكملًا تلك الفقرة التي قاطعني فيها "صبحي" بمكالمته.

"كل من يشكك بنظرياته في موضوع السفر في الزمكان اعتمد في كلامه على النظرية فقط، لم يحاول تجربة تلك النظرية على أرض الواقع، العلماء يتفلسفون أحيانًا، بينما هم أجدر الناس بالتجربة، وها نحن على أرض الواقع نثبت أنه يمكننا ذلك إذا جربنا واستمررنا في تجاربنا حتى نصل"

منحتني جملته تلك الدفعة المعنوية اللازمة لإكمال أبحاثنا في تلك التجربة حتى حدث ما حدث وانتهى كل شيء، ولكنني الآن بما وصلت له من تقدم قادر على صنع الفرق، قادر على الوصول لأبعد مما وصل إليه السيد "ديمتريف".. يا له من شرف!! ويا له من فخر!!

انتهى أسبوع الراحة، وعدت لتجاربي مرة أخرى، ولكن تلك المرة عدت مسلحًا بالأمل والحماس الذي تدفق في عروقي فحلّ محل الدماء.

بعد أن نجحت تجربتي السابقة في نقل الورقة من موضع لآخر، جربت أن أطور تجربتي، سأجرب نقل كائن عضوي تلك المرة. هرعت للشرفة واخترت أصيصًا فخاريًا يحمل في قلبه نبتة خضراء غضّة.

بعد أن قمت بدراساتي وتأكدت من صحة المعادلات الخاصة بالتجربة.. حان وقت البيان العملي.

وضعت الأصيص أمام الآلة، وقمت بزيادة معدل الطاقة المستخدم في التجربة، وذلك بسبب الكتلة الكبيرة نسبيًا للجسم تلك المرة. بدأت التجربة بالضغط على الزر.. هدرت الآلة قليلًا وهرعت للجهة المقابلة. المرة السابقة، بدأ الأصيص في التكون ببطء. استلزم الأمر وقتاً أطول قليلًا

من سابقتها، لكن في النهاية انتقل الأصيص كاملًا بالنبات والطين المغمور داخله. كانت تجربة ناجحة بكل المقاييس، الجسم انتقل بالرغم من تعدد مكوناته، والأدهى من ذلك أن التجربة نجحت في حيز من الفراغ ليس بالقليل وفي فترة مقبولة قليلًا. هرعت لدفتر ملاحظاتي لأدون بيانات تلك التجربة الناجحة...وبمجرد أن قمت بفتح الدفتر، انتابني الهلع عند سماع ذلك الصوت فجأة.

كرااااش.....

نظرت بخوف للأصيص لأجد ما لم أتوقعه، لقد تشقق الأصيص حتي تهشم لقطع صغيرة، وتناثرت أجزاء من الطين فوق مائدة التجارب بينما قبعت النبتة متمسكة بجزء كبير من الطين ظل ثابتًا فوق المائدة!

دلّ ذلك على أخطاء جسيمة في التجربة لن أسمح بتكرارها فيما بعد. عدت لبحث معادلاتي وقوانين النظرية، وظلّ ذلك الأمر كالهاجس الملازم لي طوال يقظتي ونومي، حتى توصلت أخيرًا لحل فعّال استطاع زيادة معدلات الأمان في تلك التجربة، بتقوية دعائم نظام نقل الجزيئات والتأكد من ترابط التسلسل الرمزي لها مع زيادة نسبية في معدل الطاقة.

عدت بعد ذلك لتجربة الوضع الجديد، وبعد جهد جهيد نجحت التجربة بالفعل، وبدون أي آثار جانبية تؤثر على الجسم المنقول.

شجعني نجاح التجربة الثانية بعد تكرارها وتعلمي من أخطائي وتداركها أن أرتقي لمستوى أعلى من الطموح العلمي؛ لذلك قمت مدفوعًا بمزيد من الجشع العلمي -إذا صح التعبير- وقررت أن أجرب نقل كائن حي متحرك تلك المرة!"

***

"ارتديت ملابسي استعدادًا للنزول لشراء أحد فئران التجارب العلمية من إحدى أماكن بيع الحيوانات الأليفة القريبة من منزلي. وعند وصولي هناك وجدت ذلك الدكان مغلقًا، لعنت سوء حظي. وظللت أبحث وأبحث عن أي محلٍ متخصصٍ في بيع الحيوانات، ولكن باءت محاولاتي بالفشل.

عدت للبيت مرة أخرى أجر أذيال الخيبة، وقررت أن أخلد للنوم على أن أعيد تلك التجربة غدًا آملًا أن يوفقني الله وأجد ما أريد.

خلعت ملابسي وارتديت بدلًا منها ملابس النوم، وفور رقودي على الفراش.. رأيته!!

اقترب مني بشاربه الطويل، ويداه تتحرك في سرعة وخفة.. برقت عيني في فرحة، لم يخيب الله أملي تمامًا.

هرعت لمكتبي وأحضرت إحدى علب الورق المقوى الصغيرة والمستخدمة في تخزين الأدوات المعملية. عدت لغرفتي لأجده ثابتًا كما هو. اقتربت من موضعه على الجدار في بطء محاولًا عدم استثارته، ثم بسرعة قمت بتغطيته بتلك العلبة الورقية، لقد أمسكتك أيها الصرصور!!

عدت بسرعة لمكتبي، وتأكدت من وجود ذلك الصرصور بداخل العلبة.. ها قد أتى الكائن الحي المتحرك إليّ بنفسه، لم أضيع الوقت، وبدأت إعداد الآلة جيدًا، لم أقم بزيادة الطاقة كثيرًا تلك المرة، فالحجم الصغير نسبيًا للصرصور لم يستلزم كمية كبيرة من الطاقة، ولكني تأكدت من وجود كمية كافية لنقل الصرصور بصورة صحيحة وأن تنتقل جزيئاته وخلاياه جيدًا حتة أتلافى أي مشكلة جانبية تعطل مسيرتي في التجربة.

هدرت الآلة كعادتها في كل مرة، ثم توقفت بعد نقلها للعلبة، نظرت لموضع العلبة بعد انتقالها. لقد فعلتها تلك المرة أيضًا! لقد نجحت! لم أتعجل الفرحة. ذهبت لفتح العلبة للتأكد من نجاحي التام..وبمجرد أن فتحتها،

تسلل منها الصرصور هاربًا في سرعة وزاحفًا من العلبة إلى المائدة إلى الأرض ثم إلى حريته. وقتها لم أتمكن من كتم ضحكاتي. لقد هرب الصرصور، ولكنه استحق حريته بجدارة، فليهرب كما يشاء. لقد نجحت تجربتي تمامًا... فهنيئًا لي بما فعلت، وهنيئًا له بما فعل!!"

***

"بعد حادثة الصرصور تلك.. تسارع معدل نجاحي في تلك التجربة، فأنا الآن قادر على نقل جسم، أيًا كانت حالته العضوية أو تكوينه الجزيئي من موضع لموضع آخر بعيدًا عنه..وكل ما ينقصني هو تحويل ذلك النقل في الفراغ إلى نقل في الزمكان، وأن يتحول حجم ذلك الجسم المنقول لحجم إنسان بالغ.

لمدة سنة كاملة...استغرقت في معادلاتي وتجاربي التي لازمني فيها النجاح حينًا والفشل أحيانًا أخرى كثيرة، ولكنني في نهاية تلك السنة كنت قد وصلت بمعدلاتي التي استنتجتها من تجاربي السابقة أنني قد أتمكن بالفعل من الوصول للمرحلة الأخيرة والحاسمة من تجاربي. استطعت أن أنتهي من صنع الآلة التي ستنقل الإنسان لماضيه مستعملًا الأنفاق الدودية في الزمكان.

إذا تخيلنا سطح أرضنا ينقسم لشبكة هندسية ممتدة تحتوي كوكب الأرض بأكمله داخلها، فإن تلك الشبكة ستقسم سطح الكوكب لقطاعات متماثلة قد تصل لملايين القطاعات، شيء أقرب للذهن لشكل خطوط الطول ودوائر العرض التي طالما درسناها في المدرسة في طفولتنا، ولكن تلك القطاعات ضيقة للغاية ولا تتمتع بالمساحات الممتدة التي تتمتع بها القطاعات الناتجة من تقابل الخطوط والدوائر الأخرى.

وكل قطاع من تلك القطاعات يحتوي بداخله فراغًا يمكن استعماله لتوليد ممر أو ثقب دودي، ذلك الممر يمتاز عن أقرانه من الممرات الأخرى بتردد معين يتغير حسب مكانه في شبكة القطاعات، وفي مجرى الزمن، وذلك التردد إذا استطعت التوصل إليه سيمكنني عندها استعمال ذلك الممر للتنقل في الماضي كما أردت.

قمت ببناء باقي نظريتي على تلك الأطروحة التي وجدت بدايتها في أوراق السيد "ديمتريف" رحمة الله عليك يا سيدي، فعبقريتك العلمية تنير لي طريقي الآن."

***

"بعد شهور من مطالعة الكتب العلمية، وبحث سبل الوصول لحل معادلات تردد تلك الممرات؛ استطعت أن أتوصل لقاعدة أساسية تمكنني من استنتاج المعادلات اللازمة لفتح بوابة الممر ثم استعماله بعد ذلك.

وترتبت عدة نتائج على تلك القاعدة فكانت مثلًا:

النتيجة الأولى: كل ممر يغطي قطاعًا ما من سطح الأرض تبلغ مساحته حوالي كيلو متر واحد مربع...وبفرض مساحة سطح كوكب الأرض ما يقارب ال510 مليون كم مربع، إذن العدد الإجمالي للممرات الدودية ما يقارب ال510 مليون ممر... عدد مهول! ولكن يمكن اختصار جزء كبير منه.. حيث تبلغ مساحة الماء من سطح كوكبنا ما يقرب من 70.9% من مساحة سطح الكوكب، أي المتبقي حوالي 29.1% من السطح تنتشر به اليابسة أو ما يقرب 138 مليون ممراً. ما زال العدد مهولًا، ولكنه ناتج هام لتلك المعادلات.

النتيجة الثانية: توصلت لها ببعض المعادلات الرياضية، بفرض إعطاء عدد مسلسل لكل ممر، فإن التردد النهائي للممر يتحكم فيه ذلك العدد المسلسل ويتحكم فيه موضعه أيضًا في المكان والزمان. لينتج في النهاية ترددًا يتم حساب رقمه من أربعة عشر عددًا هو الرقم الدال على تردد ذلك الممر.

النتيجة الثالثة: يقوم الممر بفتح طريق للتواصل بين موضع في الحاضر وموضعٍ ما في الماضي، وذلك عن طريق معرفة تردد ذلك الموضع المراد السفر إليه...وينتج عن ذلك نتيجة هامة جدًا.. أنه يستحيل السفر لموضع في المستقبل، لصعوبة إيجاد شيء لم يوجد بعد.

بعد وضعي لتلك النتائج، أحسست بتفاؤل غير عادي...فها أنا أضع القواعد التي سأبني عليها تجربتي العظمى التي ستنقل البشرية لآفاق لم تستطع تخيلها العقول المظلمة لبعض العلماء.

وبعد شهرين من البحث والتقصي في صحة تلك النتائج، جاءت لحظة الحقيقة.. ها أنا أقف في غرفة مكتبي، وأمسك بين راحتي آلة النقل وقد ربطتها إلى جسدي حتي لا تنفصل عني ولو لوهلة بسيطة. أعددت تجربتي جيداً، وكتبت في ورقة على سطح مكتبي أوضح فيها ما فعلت، ليعلم الناس قصتي في حالة فشل التجربة وضياعي في مجرى الزمن أو تفتت جزيئاتي وتحولت لغبار كوني.

قمت بشحن الآلة جيدًا لعدة أيام، فبرغم توصلي لحل ببعض معادلاتي يمكنني من توفير قدر كبير من الطاقة، ولكن تلك المرة سأحتاج كمًّا من الطاقة كافيًا لإنارة مبنى سكني كامل لعدة أيام! تأكدت من شحن الآلة وضغطت بأصابعي أرقام تردد الممر على لوحة الجهاز، قررت مسبقًا موضع

أول رحلةٍ لي، واقتنعت بضرورة السفر لذلك الموضع أولًا ،وبأيدٍ مرتعشة..ضغطت على زر البدء.

تذبذبت صورة الغرفة أمامي..وبدأت دائرة من الضوء المشع في التكون وسط الغرفة، سرعان ما تحولت لقُمعٍ ممتد في الفراغ أمامي. كان المشهد مهولًا ويختلف عمّا حدث من قبل، لن أستطيع وصفه ما حييت.. مشهد غريب ورائع في نفس الوقت، ترددت لحظة وانتابني الخوف من الفشل، ولكني اتخذت قرارًا منذ بداية تلك الفكرة ألا أخاف.. سأقتحم الزمن ما دمت قد وصلت لتلك المرحلة. خطوت أولى خطواتي باتجاه الثقب، وما إن لامسته حتى شعرت بقوة هائلة تسحبني لداخل الثقب، أتبعها شعور ساحق بالانضغاط، أعتقد أني فقدت الوعي لثوانٍ، فقد استفقت على بقعة من النور تتجه نحوي بسرعة شديدة..كلا..أنا الذي اتجه إليها بتلك السرعة الرهيبة..وفجأة انتهى كل ذلك في لحظة لأجد نفسي في تلك الأرض الأخرى وذلك الزمان الآخر الذي يسبق حاضري بعشرات السنين، لقد سافرت في الزمان والمكان بالفعل!!"

***

13

"انتابتني حالة عنيفة من الدوار والغثيان، يبدو أن السفر في الزمن لن يكون هيّنًا...وحينها علمت شعور الصرصور عندما انتقل خلال آلتي. حاولت أن أتماسك قليلًا، فما سأفعله بعد قليل سيستلزم مني كثيرًا من الجهد. هدأت ضربات قلبي بعد دقائق معدودة ليستكين بعدها جسدي وأبدأ في مهمتي التي أتيت لهذا الزمان والمكان من أجل تنفيذها، رمقت الكلمات المكتوبة على ذلك الباب الخشبي الذي أقف أمامه بكل رهبة وقلق. ها أنا أقف الآن أمام باب المكتب الخاص بعميد كلية علوم الفيزياء بجامعة "موسكو" الحكومية السيد "جريجوري ديمتريف".

نعم... لقد كان ذلك اختياري الخاص لأول رحلة لي عبر الزمكان. ما كان يجب أن أبدأ أي رحلة أخرى قبل القيام بتلك الرحلة الهامة، فقد يتوقف مصيري شخصيًا على تلك الرحلة. اتجهت إلى الباب وطرقته طرقتين خفيفتين.. شعرت بجلبة مكتومة خلف الباب، ثم سمعت صوته...رباه... سيل من الذكريات ينهال على عقلي بمجرد سماع ذلك الصوت الأثير إلى نفسي. انفتح الباب لأجده أمامي كما تركته منذ آخر مرة.. وقف أمامي بكل قلق لثوانٍ، ثم بدأ الذهول في وضع بصمته على مُحيّا السيد "ديمتريف". اتسعت عيناه في دهشة، ثم قالها: "جمال!!"

هرعت إليه واحتضنته في شوق، بينما تغالب دموعي نفسي، في البدء لم يبد السيد "ديمتريف" أي ردة فعل، ثم بدأت يداه في لمس كتفي ومبادلتي العناق.

أجلسته على مكتبه في سرعة، وبدأت الحديث:

"سيدي، كم اشتقت إليك... لا بد أنك قد فهمت ما حدث. لقد جئتك من مستقبلك، جئتك من أواخر القرن العشرين، لقد نجحت تجربتك بالفعل يا سيدي!!"

ما زال السيد "ديمتريف" على نفس حالته من الذهول، ولكن بعد ثوانٍ بدأ في تمالك نفسه، ليجيبني بصوت مبحوح: " كيف؟؟ كيف يا ولدي؟" ثم استدرك قائلا: "ولماذا أتيت إلى هنا بالذات؟"

أجبته في سرعة: "أولًا يجب علينا الإسراع في تنفيذ ما أتيت من أجله، فكلانا وقتنا محدود للغاية، بعد قليل ستأتي قوة من رجال المخابرات السوفيتية لإلقاء القبض عليك وبحوزتك النموذج التجريبي لآلة النقل، وبعض الأوراق العلمية الخاصة بالتجربة؛ لذلك يجب عليك أن تأتي معي لزمني حالًا لأنقذك من قبضة هولاء الوحوش المفترسة"

رد السيد "ديمتريف" في خوف: "المخابرات!! لا...لن أسمح لهم بالحصول على الآلة، ولا يمكن أن آتي معك يا جمال.. أنت تعلم القواعد.. لا يمكن تغيير الماضي، هذا كفيل بتحويل مجرى الزمن، وقد يحدث ما لا يحمد عقباه"

انفعلت قائلًا: "وأنا لن أسمح لهم بالحصول عليك ولا على الآلة... لا يوجد حل آخر!"

أجابني وقد بدأت دموعه في الانحدار على وجنته: "لن يحصلوا عليها... سنجد الحل"

***

استطعت أن أعود إلى زمننا مرة أخرى بنجاح.. وبمجرد أن عدت إلى غرفة معملي، ارتميت على مقعدي الخشبي بكل إرهاق، ثم بدأت في البكاء.

وضعت نموذج آلة السيد "ديمتريف" على المكتب أمامي مستعيدًا أحداث مرت منذ دقائق أو من المفترض منذ سنين عديدة. لم أستطيع أن أجزم موعدها، ولكنها حدثت بالفعل، دُونت في سجل الزمن بمجرد عودتي لتلك الفترة من حياتي البائسة.

إنقاذ الآلة عند السيد "ديمتريف" كان أكثر أهمية من إنقاذ نفسه: "حياتي الفانية أقدمها فداءً لتلك الآلة... لا أحد يجب أن يصل إليها يا جمال.. لا أحد"، قالها وعيناه تلتمع بالدموع ليتجه إليّ ويعانقني عناقًا حارًا، ثم أعطاني الآلة وبصوت يشوبه التأثر، قالها: "افتدِ الآلة بحياتك، واستعملها في الخير دائمًا وأبدًا. لا تحاول تغيير الماضي يا ولدي العزيز"، ثم هرع إلى مكتبه ليبدأ في التخلص من أوراق التجربة قبل أن يصل إليه رجال المخابرات، وقفت في منتصف الحجرة، وأمسكت بآلتي بيدي اليمنى بينما يقبع نموذج السيد "ديمتريف" في قبضتي اليسرى، بدأت ضبط إعدادت الآلة لإعادتي لحاضري بواسطة نفس الممر الدودي المتاح لساعات قليلة، هي الفترة الزمنية الناتجة عن قدرة الآلة على تخزين الطاقة بداخلها، وقبل أن أضغط زر النقل، نظر إليّ السيد "ديمتريف" وقد ارتسمت نظرة ارتياح على وجهه، وأردف: "حفظك الرب يا ولدي...وسلامي لـــــ"كاترينا" و"زينب""

قبل أن أجيبه..لمحت بطرف عيني تحركات رجال المخابرات من النافذة الزجاجية الصغيرة المطلة على ساحة الكلية، أخبرته في رعب:

"لقد أتوا!!" فصرخ السيد "ديمتريف" بأن أنتقل بسرعة قبل وصولهم.

ضغطت الزر وأنا أُسابِق الزمن للسفر قبل أن يأتي رجال المخابرات، بدأ الممر في التكون بالفعل، ولم أنتظر كثيرًا. اخترقت الممر وبدأت في الانتقال، وكان آخر ما سمعته طرقات عنيفة على باب المكتب وشهقة ذعر من السيد "ديمتريف". يا إلهي! إنه يحدث بالفعل!!

وها أنا أجلس على مقعدي الخاص بغرفة المعمل المقام بمنزلي القديم.. ما زلت في دهشة من أمري.. هل استطعت بالفعل أن أعود للماضي، وهل ما قمت به أنقذَ الآلة بالفعل من الوقوع في أيدي المخابرات السوفيتية أم أنهم استطاعوا بوسيلة ما معرفة نتيجة تلك التجارب التي قمت بها مع السيد "ديمتريف"؟

امتلأ عقلي بالأسئلة، فاضطررت للجوء إلى فراشي، لعله يحمل الجواب أو الراحة، أيهما أقرب."

***

انتهيت من قراءة تلك الورقة، ثم وضعتها بجانب ما قرأته من مذكرات جدي الراحل. عقلي ممتلئ بالأسئلة أنا أيضًا. ما هذا الذي أقرأه؟ هل بإمكان أي إنسان تصديق ذلك الكلام المدون بتلك المذكرات؟! ما حسبته ضربًا من الخيال العلمي وقصص الأطفال، ها هو حقيقي، وجدي هو من يخبرني بذلك، وقد عهدته طوال عمره مثالًا للدقة والالتزام. هل تلك الورقات سردٌ لمغامرة لم تحدث من قبل لبشري، أم هي مجرد كلمات لعجوز مصاب بالشيخوخة؟

انزعجت من ذلك الخاطر الأخير، فلم أستطع تخيل جدي العالم القدير والإنسان المثقف الواعي قد صار يعاني خرف الشيخوخة وعناءها. كلا... إن جدي على حق، وسأظل دائمًا محتفظًا بتلك الفكرة في ثنايا عقلي، لن أسمح لبعض الخواطر أن تقلق راحتي.

إن تصديقي لكلمات جدي لهو دليل على اقتناعي بفكرة السفر في الزمن وهذا ما ينكره العالم أجمع، ولكن كما قال السيد "ديمتريف" من ينكر تلك الفكرة، لم يستطيع إثبات خطئها بالتجربة، وهو ما يسمح بوجود هامش بسيط لصواب الفكرة وقدرتنا على تحويلها من خيال لواقع ملموس.

تملكتني الحيرة، فلم أجد حلًا لذلك إلا باستكمال القراءة.. ربما بذلك يمكنني إثبات صحة اعتقاداتي وتهدئة عقلي الذي لا يرغب في الهدوء أو الاستكانة.

أمسكت بالورقة التالية..وبدأت في التهام الكلمات المدونة على سطحها بخط جدي المنمق كعادته.

"بعد أن عدت من تلك الرحلة الزمنية الشاقة بدنيًا ونفسيًا، استلزم الأمر عدة أيام من الراحة، لم أقرب فيها معملي، ولم أفكر فيما سأفعله في الخطوات القادمة.. لأول مرة في حياتي لا أدرس أو أحضّر لما أنوي فعله في المرحلة المقبلة.. انتابتني حالة من العشوائية، خرجت من جوانب المنزل لأسير هائمًا على وجهي لا أدري إلى أين تأخذني أقدامي حتى وجدت نفسي عندها. أستند بيدي على الجانب الحجري لضريح زوجتي الغالية "كاترينا" وبجانبها ترقد ابنتي الحبيبه "زينب" رحمهما الله.

انهمرت دموعي بشدة وقرأت لهما الفاتحة، ثم افترشت الأرض بجانب الحائط، لأغرق في نوم عميق، رأيت فيه "كاترينا" و"زينب" مرتديتان أردية بيضاء، وقد ارتسم على وجوههما تعابير السلام والهدوء. شعرت كما لو أني في الجنة وأمامي تقف حوريات عدن بجمالهن الذي يفتن الألباب.

أفاقتني يد خشنة لرجل في الخمسينيات من عمره يسألني عن سبب تواجدي هنا في ذلك الوقت، لم أجيبه وقمت مسرعًا ورحلت عن ذلك

المكان بينما يضرب ذلك الرجل كفًا بكف مبديًا استغرابه الشديد من هؤلاء المجاذيب الذين يراهم مرارًا وتكرارًا.

عدت إلى منزلي وقد انتابني هدوء عجيب، وكأن ذلك الحلم الجميل قد أنزل على قلبي السكينة، وعلى عقلي الهدوء وراحة البال وقلة التفكير. قضيت ليلتي ذلك اليوم في مشاهدة ألبوم صور عائلتي الراحلة.. شاهدت صورًا لـ "كاترينا" معي أمام منزلنا بموسكو، وأثناء تجولنا في مناطق تاريخية وأثرية عديدة بروسيا، ثم صورنا معًا بمصر، وارتدائها للزي المصري التقليدي وتحولها من آنسة روسية إلى ربة منزل مصرية تجيد عمل الملوخية وطبق الفول المدمس بالزيت الحار. ارتسمت البسمة على شفتي لمرات عديدة أثناء مشاهدتي لتلك الصور المصحوبة بأجمل ذكريات حياتي، وكم انهمرت الدموع بعدها... أذّن الفجر أثناء انهماكي في تقليب تلك الذكريات، فقمت لأداء الصلاة...وبعد أن انتهيت منها، تخمرت فكرة بداخلي ملكت عقلي لساعاتٍ وأيام لتنتهي بي واقفًا في المعمل ممسكًا بآلة النقل، سأعود للماضي مرة أخرى!!

***

تلك المرة قررت موعد رحلتي.. لم أستطيع كتمان لهفتي واشتياقي إلى رؤيتهما مرة أخرى... سأعود إلى يوم زفاف "زينب"، أجمل أيامي السعيدة في حياتي السابقة.

قمت بضبط الآلة لتنقلني لذلك اليوم، وعلى مسافة بعيدة قليلًا من مكان الزفاف ليتسنى لي الاختباء والتواري بعيدًا عن أعين الناس، لم أستطيع المجازفة بأن يرى أحد نسختين مني، فهذا كفيل بقلب الأمور رأسًا على عقب.

انتقلت للماضي، وساورتني نفس الأحاسيس التي مررت بها المرة السابقة، ولكني استطعت تجاوزها أيضًا... لا مشكلة...يمكنني التغلب على ذلك الدوار....استندت على الجدار بجانبي، وبدأت في السير بخطوات هادئة وقد أرخيت قبعتي التي ارتديتها خصيصًا لإخفاء ملامحي عن أعين المارة.

أنا الآن في عام 1982....ذلك العام الذي رفع فيه "مبارك" علم مصر فوق شبه جزيرة سيناء بعد استردادها كاملةً من المحتل الصهيوني ليحتلها الفساد وينشر سيطرته على رقعة مصر بأكملها، ذلك العام الذي حدثت به "مجزرة حماة" البشعة على الأراضي اللبنانية الجميلة، ذلك العام الذي فازت به الجزائر على منتخب ألمانيا الغربية في مونديال كأس العالم لكرة القدم، ذلك العام الذي تزوجت به ابنتي "زينب" رحمها الله.

نظرت في شاشة الآلة لأجد أن وقتي قد نفد منه عديد من الدقائق، وأن ما تبقى لا يزيد عن دقائق معدودات فهرعت بأكثر ما يمكنني. لاحت قاعة الفرح على بعد...أسرعت أكثر وأكثر لأستطيع أن أراهم قبل أن أنتقل، أنظر في الشاشة..الوقت ينفد....باقي حوالي دقيقتين.. اقتربت جدًا من القاعة، أرى موكب الزفة يتحرك، أحاول تغيير موضعي لأرى "كاترينا" و"زينب" بوضوح، ولكن أجسام المدعوين تمنعني عنهم. كم رغبت أن أخترق الصفوف لألمسهم فقط مرة أخرى، ولكن لا يمكن. وقتها سيجدونني واقفًا أمامهم ونسخة مني أيضًا واقفة بجانبهم تحتضن كفيهم!

لقد فكرت كثيرًا أن أحاول إلغاء الزواج برمته، ربما بذلك لن تتوفى "زينب" أثناء ولادتك يا "أدهم" فتظل هي معي لترعاني بدلًا من حياتي وحيدًا، ثم طردت تلك الأفكار السوداء عن عقلي.. الماضي لا يمكن تغييره ولا يمكن التدخل في أقدار البشر، فمهما فعلت لن يمكنني منع ابنتي من أن يقبض ملاك الموت روحها في موعدها.

ما زلت لا أرى "كاترينا" أو "زينب" بسبب الزحام الشديد حولهم، كنت أبعد عنهم ما يقرب من مئة متر. أرى أجزاء منهم، وأرى تحركاتهم، ولكن لم أر وجوههم بوضوح حتى الآن. تركت الحائط الذي اختبأت بجانبه، ومررت بعرض الشارع لأقترب ولو لقليل من الثواني قبل أن أضطر لتشغيل آلة النقل والعودة إلى الحاضر الكئيب مرة أخرى.

أثناء مروري الشارع، وبينما يغطي ضجيج الفرح على أي صوت آخر، فوجئت بتلك السيارة المندفعه بقوة تجاهي.. لتصدمني بعنف وتلقي بي أمتارًا عديدة على جانب الطريق. شعرت بكسر في ساقي وأن وعي قد قارب على الانتهاء، أسرعت بكل ما أستطيع من قوة أن أضغط على زر النقل، وجررت جسدي بصعوبة تجاه الثقب الدودي، وتركت قوة جذبه تسحبني بداخله لتعيدني للحاضر قبل أن أجذب أي نوع من الانتباه في موضعي السابق.

انتقلت لمعملي مرة أخرى، غارقًا في دمائي ووعيي قد أوشك بالفعل على الذهاب بعيدًا عني، لأسقط على وجهي ودمي يروي أرضية المعمل.

دامت فترة فقداني للوعي لساعات عديدة نزفت فيها الكثير والكثير من الدماء. بمجرد عودة وعيي إليّ، أسرعت زاحفًا تجاه الهاتف، استنجدت بصديقي المقرب "عبد الله"، وطلبت منه إحضار طبيب بسرعة لعلاج ساقي المكسورة.

استطاع "عبد الله" بالفعل أن يصل إلى منزلي، وصلت إلى باب المنزل بعد جهد شديد، ليفاجأ "عبد الله" بحالتي، وينقلني لمشفى قريب من بيتي، وبعد أن وضع الطبيب ساقي في الجبس، ظللت حبيسًا لمنزلي لعدة أسابيع.. تلك الأسابيع ظللت أجتر فيها حزني واشتياقي لزوجتي وابنتي، أطالع صورهم وأتذكر ضحكاتهم وكلماتهم. بعد انتهاء تلك المرحلة اتخذت

قراري النهائي، لن أعود لماضيّ الخاص مرة أخرى، لن أستطيع احتمال صدمة أخرى، يكفي ضياع فرصة رؤيتي لزفاف ابنتي مرة أخرى، فهذا ما اكتشفته بعد محاولتي العودة لذلك الممر مرة أخرى لأجده مستعصيًا على المرور. الآلة تلغي الفترة الزمنية التي انتقلت إليها من خلال كل ممر قمت بفتحه من قبل، وفرصتي الوحيدة هي الممر السابق أو التالي، أي وفقًا لحساباتي، قبل تلك الفترة بثلاثة أيام أو بعدها بثلاثة أيام، لقد ضاعت عليّ فرصتي، ولن أقبل بضياع أي فرص أخرى.

الغريب والمدهش أن ذاكرتي الآن تحمل وقوع حادثة تصادم سيارة بجانب قاعة الزفاف يوم أن زُفت ابنتي، أي أن التغيير الذي أحدثته في الماضي حمل آثاره للحاضر بالفعل.. تذكرت تحذير السيد "ديمتريف" بعدم المخاطرة بتغيير أي حدث ولو قليل في الماضي حتى لا يلقي بظلاله على الحاضر.

لقد صارت فكرة السفر عبر الزمن حقيقة لا جدال فيها بالنسبة لي...ومنذ الآن قررت أن أكتب مذكراتي لك يا أدهم...فمذكراتي تلك وسيلة أخرى من وسائل السفر في الزمن، سأخبرك يا بني بما سأفعله لتعلم أي سر خبأه جدك لسنوات عديدة، وليصل إليك سري في وقت سأكون ميتًا عاجزًا فيه عن البوح لك به."

اغرورقت عيناي بالدموع بعد قرائتي لتلك الصفحات... زالت عني أي شكوك في صحة كلام جدي، وحتى إن كان مخرفًا قد نال منه الهرم والعجز...لا يمكنني التشكيك في كلماته الآن. يا إلهي! كم عانيت يا جدي! ها قد انتهيت من بعض الأوراق، وما زال العديد والعديد من الأوراق قابعًا في ذلك الصندوق الخشبي. ترى ماذا رأيت؟ وماذا علمت؟ كيف حاورك الزمان؟ وماذا أخبرك في تلك الحوارات؟ إن كلماتك لم

تكشف لي سرًّا واحدًا فحسب، بل إنها فتحت عيني لأرى أسرارًا مختبئة ظلت مدفونة في ذلك الصندوق لسنوات مرت. يعلم الله هل كنت سأراها أم أظل في غفلتي عنها.. سأقرأ...سأقرأ كلماتك يا جدي، لأعلم وأتعلم ولأكشف ذلك السر الذي أردت إيصاله لي.. رحمك الله يا جدي، ويرحمنا جميعًا برحمته الواسعة، ويعيننا على فهم ما نراه ونعلمه.

***

14

في صباح اليوم التالي، فكرت أن أمر بالمحطة الإذاعية لأرى "أروى" واطمئن على أحوالها، فطوال الأيام السابقة لم أرها، ولم أستطيع الاكتفاء بالمكالمات الهاتفية اليومية المتبادلة بيننا. انتهيت من فطوري وذهبت إلى محطة الإذاعة...مررت عليها بمكتبها في الدور الثالث فوجدتها غارقة في أوراقها وأعمالها. تبادلنا الحديث لحوالي نصف ساعة، ثم رحلت لأتركها تكمل عملها في سلام. قبل رحيلي عن مقر المحطة، مررت على عم "خالد" وتبادلنا المزاح والقفشات الفكاهية، قررت أن أستجم قليلًا. ذهبت إلى كورنيش النيل لأستنشق بعض الهواء النقي بعيدًا عن عوادم سيارات القاهرة الخانقة.

بعد أن أعدت تجديد رئتي، عدت إلى المترل وقد حان موعد الظهيرة. دخلت إلى غرفة المكتب، وأمسكت بأوراق جدي لأكمل قراءة ما كتبه لي، ولمعرفة مزيد من الأسرار.

***

"بعد حادثة إصابتي بكسر في الساق اليمنى، لازمت الفراش لمدة أسبوعين لارتدائي جبيرة الجبس.. بعدها فاض بي الكيل من شدة الملل، قمت إلى معملي مرة أخرى لأكمل تطويري للآلة. لقد كانت فترة الأسبوعين الماضيين كافيةً لإلهامي بالعديد من الأفكار والتطويرات التي ستقفز بالآلة خطوات كثيرة إلى الأمام.

كانت المشكلة الأولى بالنسبة إليّ هي الطاقة، فبسبب قلة الطاقة المخزنة بالآلة، لم أستطع المكوث في الماضي طويلًا، لذلك قررت العمل على تلك النقطة، أحتاج إلى زيادة معدل طاقة الآلة بأي طريقة.

ظلت تلك المشكلة هي محور بحثي وشغلي الشاغل طوال شهر كامل، توصلت فيه إلى بدائل جديدة للطاقة باستخدام بعض العناصر والمركبات...كم أجهدتني تلك المرحلة بالفعل، ولكنها حمدًا لله، نجحت أخيرًا، واستطعت إطالة الفترة المتاحة للمكوث في الزمن الآخر إلى ما يقرب من سبعين ساعة كاملة، ولم أستطيع زيادتها أكثر من ذلك لأنها – وفقًا لمعادلاتي– أكثر فترة ممكنة للآلة تتمكن فيها من الاحتفاظ بطاقتها اللازمة لإتمام عملية العودة للحاضر مرة أخرى.

وبسبب تلك النقطة السابقة، قمت ببرمجة الآلة وتهيئتها بخطة استثنائية، يتم تفعيلها في حالة عدم الرجوع للزمن الحالي بعد فترة تُقدر بحوالي ستين ساعة، فإن الآلة ستقوم بفتح أقرب ممر دودي بديل للممر الرئيسي حيث تمّ الانتقال منه لذلك الزمن، وتعود بحامل الآلة إلى زمننا الحالي.

أما إذا وقع حادث ما لحامل الآلة، ولم يستطيع التواجد مع الآلة وقت الرحيل بعد فترة الستين ساعة، فإن الآلة ستُفعّل الخطة الاستثنائية وتنتقل وحدها لحاضرنا من نفس موقع الانطلاق الأساسي، حتى يتم حماية الآلة من الوقوع في الأيدي الخطأ في الزمن الماضي، ومنع أي اختلالات قد تحدث في الزمن بسبب اكتشاف أجدادنا لتلك الآلة الخطرة.

بعد ذلك الشهر، تخلصت من الجبيرة أخيرًا، واستلزم الأمر حوالي الأسبوع كي تعود ساقي لياقتها الطبيعية، وبالرغم من تجاوزي الستين بعدة سنوات، إلا أنني استطعت الحفاظ على صحتي بالمداومة على ممارسة بعض من الرياضة والالتزام بنظام معين لتناول الطعام، وذلك – بعد عناية

الله وحفظه- هو سبب نشاطي ولياقتي الصحية الجيدة بالنسبة لسني الطاعن.

انشغل بالي كثيرًا بزمن الرحلة القادمة، فالخيارات واسعة وممتدة أمامي، والوقت ضيق ولا أعلم إلى متى سيمكنني استعمال الآلة بسلام. جال بذهني خاطر أن أسافر لزمن الدولة النازية، فتلك الفترة لطالما ألهبت خيال الأدباء والروائيين بما فيها من أحداث تاريخية وشخصيات ذات كاريزما عالية، أشهرهم الهر "أدولف هتلر" قائد النازية الأكبر.

اقشعر بدني فور أن تذكرت "هتلر"، فبالرغم من افتتاني الشخصي به، وبشخصيته الحازمة وعبقريته السياسية، إلا أن الرحمة لم تكن من صفاته المحببة، فلقد كان السبب الأول في مقتل الآلاف من الأبرياء، بعيدًا عن صحة ما فعله بحق اليهود، إلا أن شره لم يسلم منه أحد على وجه الأرض وقتها.

انتابني القلق، فتلك الفترة لم تكن بالسهلة، وذهابي لها سيحمل كمًّا من المخاطرة وقد تؤدي لحتفي بالفعل، إلا أن قراري بالسفر مرة أخرى بعد آخر رحلة تمت منحني حماسًا لا يوصف، أعاد لذاكرتي حماس الشباب والدم الثائر في العروق يوم أن كنت شابًا في وقت من الأوقات"

***

"بدأت من اليوم التالي الإعداد لرحلتي القادمة المحفوفة بالمخاطر. استلزم شحن الآلة لتجهيزها للرحلة حوالي تسعة أيام...قضيت تلك الأيام التسعة في الاستعداد للرحلة، قمت بعمل جرد لمكتبة جدي الضخمة لاستخراج كل ما لدي عن الفترة النازية، وجدت بالفعل حوالي ما يقرب من ستة كتب، منهم مجلدان مكدسان بالصور الفوتوغرافية التي تسجل أهم فترات تلك الفترة.

استغرقتني القراءة في تلك الكتب الستة طوال فترة شحن الآلة، وانتابني كثير من الحماس الممزوج بالقلق والهلع أحيانًا أثناء قرائتي لما كُتب عن تلك الفترة. لم أستطيع اختيار أفضل فترة يمكن السفر إليها للاستزادة ومعايشة الأحداث كما حدثت بالفعل وقتها، فتلك في رأيي المتواضع، أفضل طريقة ممكنة لي حاليًا لمعرفة التاريخ، بدلًا من التقيد بما كُتب في السجلات، والتي قد يتم تدوينها في ظروف معينة بهدف طمس الحقائق أو صنع تاريخ مزيف لمن لا يستحق.

بعد تصفيتي لعديد من الاختيارات، اخترت يوم الجمعة الموافق الرابع من شهر نوفمبر لعام **1921**...ذلك اليوم الذي تم فيه إنشاء ما يسمى بـــ"قوات العاصفة"، الذراع المسلح للحزب النازي، والتي كانت من أشد المساندين ولاءًا لقائد النازية "أدولف هتلر"، وتشبه لدينا قليلًا مراكز القوى والمخابرات في فترة الستينيات.

في ذلك اليوم بإحدى قاعات فندق "هوفبروهاوس" العريق بالمدينة الألمانية "ميونيخ"، سيدعو الحزب النازي لاجتماع سيتحدث فيه "هتلر" ثم سيحدث هرج ومرج في تلك القاعة من جانب المعارضين للحزب النازي و"هتلر"، ويتمكن رجال حرس الحزب في ذلك اليوم من دحر هجمات المعارضين جميعًا، ليصبح هؤلاء الحرس بعد ذلك نواةً لقوات العاصفة.. تلك هي بداية تكوين جيش النازية بالفعل.

انقضت فترة التسعة أيام، وتأكدت من شحن الآلة بالكامل، قمت بتهيئة ملابسي، وجدت بعض ملابس والدي القديمة، أعتقد أنها ستفي بالغرض، فهي تشبه الملابس المعتادة لتلك الفترة بالفعل، وقمت بإمساك الآلة وضبط التاريخ والمكان. بَسْمَلْتُ في سري، ثم ضغطت الزر..."

***

"استطعت تلك المرة أن أتخلص من إحساس الدوار والغثيان بسرعة نسبيًا...يبدو أنني سأبدأ في اعتياد ذلك الشعور بالفعل. أخرجني افتتاني واندهاشي بالمشهد من التركيز في شعوري بعد الانتقال، كان المشهد بديعًا أمامي.. فها أنا في زمن يسبق مولدي بأكثر من عشر سنوات كاملة!!

أخذت في تأمل الناس من حولي في افتتان..كم تختلف الأذواق وقتها عن أذواقنا الآن.. انتابني شعور بالعظمة بمجرد رؤيتي لملابس المارة أمامي وقتها، أغلب الرجال إن لم يكن كلهم، يسير في خيلاء وقد ارتدى حُلته كاملةً، وازدانت ملابس السيدات بالنقوش والقبعات الأنيقة، بل إن الأطفال أنفسهم شعرت بالإعجاب لما يرتدونه من ملابس فخمة تنم عن ذوقٍ عالٍ.

نظرت في ساعتي، إن اجتماع الحزب سوف يُقام بعد حوالي ساعة، يجب عليّ الإسراع، سألت أحد المارة من حولي عن فندق "هوفبروهاوس" مستعملًا لغتي الألمانية البسيطة نتيجة قراءات شغوفة لمدة سنين في تلك اللغة الممتعة. دلّني الرجل على اتجاه الفندق، وإن استدل من لهجتي ومصطلحاتي أنني لست من المنتمين لألمانيا.. وكم ستكون دهشته إن علم بأني لست من المنتمين لتلك الفترة الزمنية من الأساس!

بعد مسيرة ربع ساعة تمكنت من الوصول للفندق.. تأملت واجهة الفندق. الفندق مطلي باللون الأبيض، ويغطيه سقف قرميدي كأغلب أسقف المباني الأوروبية وقتها، وتصطف نوافذه في طابقين ويتوسطها ناصية الفندق التي تطل من الجانب على قارعة الطريق.

ولجت إلى الفندق وحاولت السؤال على القاعة بأقل الكلمات الممكنة تجنبًا للوقوع في الخطأ وكشف شخصيتي بزلات لساني. وصلت إلى لقاعة وحجزت أحد المقاعد وجلست في انتظار بدء الخطبة.

لاحظت ازدحام المكان بعد دقائق بمعارضي الحزب النازي، وهم من يُطلق عليهم "هتلر" لقب المشاغبين الحمر، وبدا من تصرفاتهم وكلامهم أنهم من طبقة العمال الكادحين، وظهرت رغبتهم في تعطيل الاجتماع.

بالرغم من ذلك، عندما حان الوقت، وقف "هتلر" وراء المائدة المتوسطة للقاعة لإلقاء خطابه.. تسارعت دقات قلبي بمجرد رؤيتي له. تختلف رؤيته في الحقيقة عمّا نراه في التسجيلات والصور، فهو لم يكن طويل القامة، ولكن لحضوره هيبة طاغية.. بالفعل لهذا الرجل مقدار من الهيبة والكاريزما يمكن قياسهم بالأطنان، فبمجرد وقوفه واستعداده للتحدث، صمت الجميع بمن فيهم المعارضين المشاغبين، وأمسك كل منهم بكوب جعته، وأخذ في احتسائها بهدوء.. وبدأ "هتلر" في كلامه.

تحدث هتلر منذ البداية بكل قوة، وأثناء حديثه كان ينتفض بجسده وذراعيه في حركات عنيفة تحرك خصلات شعره الفاحم على جبهته الطويلة، تلك الانتفاضات التي ميزّت طريقة خطابته والتي سحر بها لُب الألمان لسنوات عديدة تَبِعُوه فيها نحو النصر، حتي أتت نكساتهم الحربية لتطيح بحلم الدولة النازية وشعار "ألمانيا فوق الجميع" الذي طالما تغنوا به.

بعد حوالي ساعة من الخطاب، اشتدت حدة أسلوب "هتلر"، واستغل سيطرته على الحشد المجتمع بالقاعة، وامتلاكه لعقولهم بخطابه المؤثر، فبدأ في مهاجمة المعارضين باللفظ والتجريح. استغل أحد الحضور من المعارضين ذلك التجريح أيّما استغلال، فنهض بقامته الطويلة ونادى للحرية ثلاث مرات، ليردد أنصاره من ورائه هتافاته، ثم في لحظات اشتعل الموقف.

بدأت أعمال الشغب في القاعة الفخمة، فقام المعارضون بقلب الموائد والطاولات، واتجه بعضهم لجمع الزجاجات الفارغة وإلقائها على "هتلر" وأعوانه من الحزب النازي، واختلط الصراخ بأصوات الزجاجات

المتحطمة، وفي وسط الهرج والمرج، استطعت أنا أن أفلت بنفسي واتجه صوب المخرج. ولكن أثناء خروجي أثار انتباهي سقوط أحد الأوسمة العسكرية لأحد الحراس على أرضية القاعة بجانب أحد الحوائط، بدافع الفضول امتدت يدي لالتقاط الوسام ووضعته بسرعة في جيب معطفي الثقيل الذي ارتديته لاتقاء البرد أولًا ولإخفاء الآلة بداخله ثانيًا.

أثناء نهوضي، طالتني إحدى الزجاجات الملقاة في الهواء، فأصابتني في جبهتي إصابة بالغة تدفق على إثرها الدم من صدغي الأيمن. حاولت الهرب بأسرع ما يمكن من ذلك المكان، خاصةً بعد رؤيتي لبعض الأسلحة النارية التي بدأت في الظهور من كلا الجانبين.

بعد دقائق، استطاع عدد كبير من الحضور أن يهرب خارج القاعة، وبمجرد خروجي من باب القاعة واتجاهي لردهة الفندق مع الزحام المتحرك تجاه المدخل، اندلع انفجار كبير من خلفنا، أثار موجة هائلة من الذعر أسرعت بدفعي تجاه المدخل فلم أتبين نتيجة ما حدث، وإن علمت بعد ذلك من قرائتي لكتاب "كفاحي" الذي كتبه "أدولف هتلر" بنفسه، أنه قال أثناء وصفه لذلك اليوم، أن الانفجار قد قتل ما يقرب من خمس حراس، إلا أن ذلك لم يفتّ في عضد الحراس المرابطين، فأكملوا مقاومتهم لمعارضيهم حتي استطاعوا دحر ما تبقى منهم، واستكمل "هتلر" خطابه وأنهى خطابه بمشاركته في الأناشيد القومية التي طالما كانت تُنشد بعد الخطابات.

استطعت الخروج من الفندق، وما زال جرحي ينزف. حاولت العودة لموضع الانتقال، واستطعت ذلك بعد مسيرة خمس عشر دقيقة. تأكدت من ابتعادي عن أعين المارة، فآخر ما أريده أن يراني أحدهم أثناء فتحي لبوابة الممر الدودي واختفائي داخله.

عدت إلى معملي، وبمجرد العودة أسرعت إلى دورة المياة لغسل جرحي الذي نزف كثيرًا في الدقائق السابقة... وبعد أن انتهيت من تطهير وتضميد الجرح جلست على مكتبي لأستريح من عناء تلك الرحلة الشاقة. كانت بالفعل رحلة شاقة كما توقعت، ولكني أحمد الله أني عدت منها حيًا، فقد كان الموت قيد أنملة مني إن لم أستطيع الهرب في وقت مناسب للنجاة من ذلك الانفجار القاتل.

ما حدث لي خلال رحلتي السابقة وما قبلها أيضًا، أثار لدي موجة من القلق، فتلك الرحلات بأغلبها طالني الخطر فيها مرات عديدة.. إذن ماذا أفعل إن حدث المحظور ووقع ما لا يُحمد عقباه ونال مني الموت في إحدى تلك الرحلات؟

قررت بعد تلك الرحلة أن أحتفظ بالمذكرات في مكان آمن، وفي نفس الوقت، يمكن لك أن تصل إليه بعد مماتي. لم أجد مكانًا أفضل من بيت صديقي "عبد الله"، فذلك الصديق الوفي قضيت معه أغلب سنوات عمري، وأستطيع أن أترك المذكرات معه بدون أي قلق أو أي خوف. وهذا ما حدث.. فكنت أترك المذكرات معه قبل كل رحلة أقوم بها، فإن عدت بسلامٍ ذهبت إليه في اليوم التالي وأخذت منه المذكرات لأدون ما حدث لي فيها، وإن لم أعد وقبض روحي ملك الموت، كانت المذكرات في أمان عنده، وتصل إليك بعد أن يتأكد "عبد الله" من وفاتي"

توقفت عند نهاية تلك الورقة من مذكرات جدي...لأتمتم بصوت خافت:

"اهي المذكرات جت لي فعلًا يا جدو، الله يرحمك، ومتخافش صاحبك أدى أمانته فعلًا"

ربطت بين ما قرأته الآن وسر الوسام العسكري القديم.. ذاك هو الوسام الذي وجدته مع "أروى" وسألت "صبحي" عن حقيقته، قمت من موضعي لأتجه لدرج المكتب حيث تركت الوسام. أخذت في تأمله للحظات. إذن فذلك الوسام ينتمي لأحد حراس "هتلر" النازيين... يا لسخرية القدر! ها هو ينتهي به المطاف معي بدلًا من أن يوضع في أحد متاحف برلين.

رنّ هاتفي المحمول بغتة، وارتفع صوت الرنة المميزة لـ"أروى". نظرت إلى الساعة بسرعة لأجدها تقترب من الواحدة والنصف ظهرًا.. غالبًا لقد انتهت من عملها وترغب في سؤالي أن نخرج معًا بعد عودتها للمنزل.

أمسكت بالهاتف وقمت بالرد فورًا...

– ألو....أيوا يا حبيبتي؟

باغتني صوت بكاء "أروى" بشكل هستيري....فسألتها في سرعة ممتزجة بالفزع:

– أروى!! حصل ايه؟؟ بتعيطي كده ليه؟ حصل ايه يا أروى؟

أجابتني وسط نحيبها وبكائها:

– ألحقني يا أدهم....شوف الحيوان اللي اسمه ممدوح عمل معايا ايه؟

انتابني الغضب فورًا فأجبتها:

– عمل ايه الزفت دا؟

لم أستطيع تبيان كلامها من كثرة نحيبها، ليزداد غضبي وثورتي، فأجبتها بسرعة:

– أروى لو أنت لسه عند الشغل، استنيني أنا جايلك حالًا.

ارتديت ملابسي في عجلة لأستطيع الوصول لـ"أروى"، وأعلم ماهية الورطة التي حدثت لها. يا الله، ارحمنا برحمتك فأنت أرحم الراحمين!!

***

15

استلزم من الوقت ما يقرب من النصف ساعة كي أصل لـ"أروى"...وبمجرد وصولي للمحطة، ذهبت لمكتبها فوجدتها بجانب رفيقاتها، وقد انهمرت الدموع من عينيها فأغرقت ملابسها من شدة البكاء، انفعلت بشدة محاولًا فهم سبب بكائها الشديد.

بدأت في سرد ما حدث وسط نحيبها وبكائها المتقطع:

"كنت قاعدة في مكتبي شغالة كالعادة..لقيت أستاذ ممدوح بيطلبني فورًا.. سبت اللي ف ايدي ورحت له، دخلت.. قعدت.. بدأ يسألني أسئلة كتيرة مش منطقية ومش عارفة سببها.. أنتِ ايه حدود علاقتك بأدهم؟ هل مستواه المادي كويس؟ هل مستريحة معاه ولا لأ؟ ليه ارتبطتي بيه بالذات دونًا عن بقية اللي معاكي في المحطة؟ شوية أسئلة بجد معرفتش سببها ايه...ولما نبهته أن الأسئلة دي شخصية وملهاش علاقة بالشغل قمت طالبة إذنه بإني أخرج من المكتب وقمت.. جه بسرعة عليا وقال لي مش قصدي والله...أنا بس بهتم بيكي زي أختي الصغيرة واكتر.. ولقيته حط ايده على دراعي..ساعتها معرفتش أمسك نفسي وقمت مزعقة في وشه.. واتهمته بالتحرش بيا في مكتبه.. الحيوان دا."

وهنا انهمرت دموعها بغزارة، لأبدأ أنا في الاشتعال. إذن..لقد جعلت صراعنا شخصيًا بالفعل أيها الوغد. حسنًا.. الويل لك! قاطع استطراد "أروى" ثورتي الداخلية.

"أول ما قلت له كده..لقيته بدأ يزعق ويرفع صوته، وراح فتح باب المكتب وخلى الكلام قدام الناس، واتهمني أنا إني بحاول أرشيه جنسيًّا علشان يخفف عنك الجزاء ويرجع برنامجك تاني بعد اللي عملته مع محمود الشربيني.. الحيوان عاوز يبوظ سمعتي قدام الناس.. أنا ذهلت أول ما سمعت الكلام دا بيطلع منه، ومن كتر إتقانه لدور المسكين، شوية ناس من اللي واقفين شكلهم صدقوه فعلًا.. أنا مقدرتش استحمل بجد...جريت على مكتبي وزميلاتي لحقوني بالعافية وأغمى عليّا مرتين"

فاض بي الكيل بعد حديث "أروى"...ذلك الوغد البائس استحق ما سأفعله به. انطلقت إلى مكتب "ممدوح" بالرغم من محاولات "أروى" المستميتة لإيقافي، لن يوقفني أحد الآن، سألقن ذلك السافل درسًا لن ينساه بالفعل!!

***

خلال ثوان، وصلت لمكتب مدير المحطة، ولم أعر انتباهًا للسكرتيرة. لقد اتجهت مباشرةً نحو باب المكتب.. دفعته بقوة متسببًا في شروخ جسيمة في مواضع عديدة منه. دلفت إلى المكتب فوجدت ذلك الوغد جالسًا بكل أريحية على مقعد مكتبه ممسكًا بهاتفه المحمول وقد غرق في نوبة ضحك مع المتحدث بالطرف الآخر. بمجرد دخولي، اختنقت الضحكات في حلقه، ليخرج صوته متحشرجًا:

– أنت ازاي دخلت كده يا بني آدم؟

لم أجبه....على الأقل باللفظ...فلقد كانت إجابتي هي الإمساك به من ياقة قميصه، ثم أذقته طعم قبضتي...كان الأمر غريبًا بالنسبة لي، فأنا طوال حياتي لم أكن من المتشاجرين، ولم ألجأ للعنف كوسيلة لحل مشاكلي أبدًا، ولكن الموضوع الآن أختلف.. فأنا أدافع عن شرفي وشرف حبيبتي "أروى"....ولا بد لذلك الوغد الدنيء من نهاية لكل تجاوزاته المتكررة.

انهالت عليه اللكمات مني، اللكمة تلو الأخرى، حتى شعرت أن قبضاتي صارت كآلة ميكانيكية تعمل بدون قائد، تسببت لكماتي في إصابته بكدمات وجروح قطعية غائرة بوجهه، سالت من جرائها الدماء بغزارة شديدة. بعد دقيقتين من اللكمات والسباب المتواصل، صار وجهه كتلة من اللحم المفروم، واستطاع بعض الزملاء أن ينقذوا "ممدوح" من يدي بصعوبة بالغة.

استقوى "ممدوح" بمن حوله واستغلهم كوسيلة للضغط، فبدأ في الصراخ والعويل ومحاولة إنكار أي تهم عن نفسه، وإلقاء اللوم عليّ وعلى "أروى".

– شفتوا يا نااااس...شفتوا البيه المحترم؟؟ جاي يتهجم عليّا جوا مكتبي؟ يعني الهانم بتاعته بتحاول تغويني، وهو جاي يضربني. دي بقت سوق خضار مش مكان شغل محترم!!

أجبته بكل غضب: "متتكلمش أنت عن الاحترام يا..." وأرفقت جملتي بصفعة على وجهه أخرسته وزادت من اشتعال الموقف، ليتمكن بعدها من الصياح بوجهي ولأول مرة بعد إمساك زملائي لي ومحاولة إبعادي عنه.

– اخرج برااااااااا....أنت مرفووووود أنت والسنيورة....اطلعوا برة المحطة يا شوية كلاااب!

تناوبنا السباب والصياح حتى قام زملائي بإنهاء الموقف ومحاولة تهدئة الطرفين. عدت إلى "أروى" لأرحل معها، فوجدت أن إحدي زميلاتها قد قامت بإيصالها لمنزلها بعد أن فقدت الوعي مرة أخرى. خرجت بسرعة لأستقل الحافلة لكي أصل لـــ"أروى"، وأثناء ذلك قمت بالاتصال بها على هاتفها المحمول، فأجابت "أروى" بصوت رقيق غلبت عليه آثار التعب:

– أيوا يا أدهم...أنا آسفة بجد...أغمى عليّا ولقيت شيرين بتاخدني معاها في العربية توصلني للبيت.

أجبتها في هدوء: "خلاص مفيش مشكلة... أنا خدت حقنا"

أجابتني في سرعة: "عملت ايه؟ اوعى تكون اهورت زي عادتك يا أدهم!!"

رددت: "اهورت!! لأ متقلقيش...مفيش أي هور...هاحكي لك اللي حصل لما أجيلك"

أجابت: "لأ يا أدهم...متتعبش نفسك أرجوك...أنا إن شاء الله هريح في السرير وابقى كويسة بكرة".

أصررتُ على المجيء إليها ولكن لم يكن لإصراري فائدة أمام عناد "أروى" الشديد، لأضطر للذهاب لمنزلي عوضًا عن منزلها، وقد انتابني الغضب مما حدث اليوم، ومما آلت إليه الأمور.

***

عدت للمنزل...لم أقم بتغيير ملابسي من فرط غضبي وعدم تركيزي، فكان نومي هو الحل الأمثل للهروب من ذلك الموقف.

استيقظت مساءً على صوت أذان العشاء، قمت بالاستحمام وأداء صلاة العشاء ،وما فاتني قبلها من صلوات ضيعتها أثناء نومي وبمجرد انتهائي، اتصلت هاتفيًا بـــ"أروى" للاطمئنان على حالتها.. أجابتني والدتها بصوت هادئ:

– ازيك يا أدهم يا بني دلوقتي؟ عامل ايه؟

– الحمد لله يا أمي...أروى عاملة ايه دلوقتي؟

– والله يا أدهم لسه نايمة من ساعة ما جت، وهي راقدة في السرير... بس بإذن الله تصحى بكرة فايقة.

انتابتني الحسرة، فلقد رغبت في سماع صوتها للتأكد من سلامتها، ولم أستطيع بالطبع أن أطلب من أمها أن توقظها من نومها. إذن فليتأجل حديثنا للغد. أجبت والدتها وخيبة الأمل واضحه في صوتي:

– خلاص يا أمي...خليها تستريح، وإن شاء الله بكرة آجي اشوفها إن أمكن.

– تنور يا بني البيت بيتك في أي وقت... ربنا يخليك لينا يا أدهم.

– العفو يا أمي...ربنا يخليكي أنتِ لينا....السلام عليكم.

أنهيت الاتصال ثم قمت لأرى ما يمكن عمله اليوم فلم أجد أفضل من استكمال قراءة مذكرات جدي عسى أن تكون بلسمًا شافيًا لجروح نفسي، وخير مخرج من تلك الساعات القاتمة.

"ظللت لأيام في حالة نفسية بديعة، فلقد كانت رحلتي الأخيرة بالرغم من متاعبها الجسيمة، إلا أنها أعطتني دفعه معنوية شديدة لأكمل تجاربي وأطور من آلتي العزيزة.

كان موعدي مع القدر في تلك الليلة التي أعدت فيها فتح صندوق مقتنيات والدي الراحل –رحمه الله– حيث وجدته موضوعًا أسفل دولابه، ذلك الصندوق كان كالبوابة التي فُتحت لتعيد ذكرياتي أمام ناظري كشريط فيلم سينمائي. وجدت الغليون الخاص بوالدي، نظارته ذات العدسات الزجاجية شديدة النقاء، محفظته الجلدية الفخمة المصنوعة بأيدي أفضل الصناع الإيطاليين، ثم ساعته.. تلك الساعة الذهبية المميزة من الطراز المسمى بساعة الكاتينة ذات السلسلة والتى اشتهر بها والدي في شارعنا قديمًا. نالت تلك الساعة إعجابي منذ أن رأيتها في صغري، تناولتها بأنامل مرتعشة، تأملتها في رهبة وإعجاب. تلك النقوش المتداخلة،

ومقبضها الصغير المنمنم، وبيت الشعر المنقوش على غطائها الذهبي، والذي نظمه والدي بنفسه وطلب أن يتم تدوينه على الساعة: "وما الحياة إلا رحلة ... كلنا فيها مسافر".

أعدت قراءة البيت مرات ومرات.. يالها من جملة بليغة، تحمل في طياتها معانٍ عديدة، ولقد أدركتها بالفعل بعد أن سافرت في ثلاث رحلات استعدت فيها أزمان غابرة، كلنا نسافر في حياتنا، نسافر في المكان وفي الزمان، ولكن سفرنا محكوم بقوانين صارمة تمنعنا من العودة.. وها أنا قد اخترقت تلك القوانين وعدت بالفعل. عدت أكثر من مرة، وقد أعود مراتٍ أخرى أيضًا.

استغرقت في ذلك الصندوق لساعات، عدت بعدها لتجاربي وتطويري لآلة النقل بعد أن انتهيت من مشكلة تخزين الطاقة، واجهتني مشكلة أخرى، ألا وهي الحجم الكبير نسبيًّا لجزء إعادة النقل، والذي اضطرني في الرحلات السابقة أن أحاول تخبئتها بأي شكل أو بوضعها في ثنيات ملابسي الثقيلة، لذلك أردت أن أتوصل لحل يغنيني عن عناء إخفاء الآلة.

استطعت بعد مراحل متتابعه أن أقلص حجم الآلة كثيرًا، فصارت في متناول اليد بدلًامن كونها في حجم علبة متوسطة الحجم.. لا أعلم لماذا؟ ولكن مرأى ساعة والدي القديمة لم يبتعد عن ذهني، وانتابتني رغبة شديدة في استعمال تلك الساعة فيما يتصل بتجربتي.

قمت بفك الساعة بحرص شديد، واستطعت بخبرتي المتواضعة أن أغيّر قلب الساعة اليدوي بجهاز ميكانيكي صغير يتولى تشغيل الساعة بشكل عادي، وفي نفس الوقت أمكنني أن أفرغ مساحة كبيرة داخل الساعة،

فحملت بداخلها الجزء الخاص بإعاده النقل، وبعد انتهائي من جمع أجزاء الساعة، صارت الساعة الآن هي آلتي الجديدة.

شعرت بفرحة عارمة تجتاحني لنجاحي في تنفيذ تلك الخطوة الهامة، فذلك التطوير الأخير أتاح لي أن أتخلص من مشكلة الحجم، وما قد ينتج عنها من مشاكل وأخطار تهددني في رحلاتي بسبب انتباه الآخرين من حولي للآلة.. بالإضافة لذلك، فلقد جمعني ذلك التطوير بجزء من والدي سيظل معي دائمًا في رحلاتي أستمد منه الدعم والثبات، وأشعر معه بالاطمئنان والراحة"

***

أغلقت مذكرات جدي، مكتفيًا بما قرأت اليوم وخلدت للنوم مرة أخرى استعدادًا لزيارتي لـ"أروى" صباح الغد.

استيقظت في الصباح على صوت رنين جرس الباب..قمت مسرعًا، وبمجرد أن فتحت الباب فوجئت بـ"أروى" واقفة أمامي:

– أروى!! أنتِ ايه اللي قومك من السرير؟؟

أجابتني "أروى" في هدوء:

– بعد اللي حصل امبارح قلت لازم أنا اللي أشوفك بنفسى

احتضنتها وقبلتها على جبهتها.

– ربنا يخليكي ليّا....بس برضو مكانش ينفع تتعبي نفسك وتيجي...أنا كنت جاي لك كمان شوية

ابتسمت قائلة: خلاص أنا جيت لك لحد عندك....أخبارك ايه دلوقتي؟

بادلتها الابتسام وأجبتها أثناء دخولنا لغرفة مكتب جدي:

– الحمد لله أنا كويس ما دام شفتك...ومتقلقيش...أخدت حقنا من اللي اسمه ممدوح دا..

انزعجت قليلًا لدى سماع اسمه، ورجتني قائلة:

– بلاش تنطق اسمه تاني....حسبي الله ونعم الوكيل فيه....أنا بعد ما صحيت امبارح بالليل، شيرين زميلتي حكت لي على التليفون إنه رفدنا من الشغل؟

أجبتها بحزن: " آه...للاسف..كده بقينا عواطليه احنا الاتنين"

ابتسمت ثم غمزت بعينيها وقالت: "أحسن..خلصنا من وشه..إن شاء الله ربنا يعوضنا في شغلانة تانية"

استمر حديثنا لدقائق أخري حتي أنستني واجب الضيافة، فقمت لعمل كوبين من الشاي لنا، تبعتني للمطبخ وتحادثنا قليلًا أثناء إعدادي للشاي، ثم عدنا للمكتب مرة أخرى.

وضعت "أوى" كوب الشاي أمامها على سطح المكتب، ثم سألتني في اهتمام:

– مقولتليش ايه الموضوع اللي كان عاوزك فيه أستاذ عبد الله المحامي؟

لم أرغب أن أروي لها موضوع مذكرات جدي، فاختلقت الإجابة لكي أنهي هذا الموضوع:

– اااااه...دا كان بيكلمني في مواضيع بخصوص الميراث وكده.. وبيسألني لو احتجت أي حاجة إني أطلبها منه على طول.... راجل ذوق أوي فعلًا..

قبل أن تتفوه "أروى" بكلمة أخرى، رنّ جرس هاتف المنزل بصوته المزعج، فاهتزت "أروى" من المفاجأة وارتطمت يدها بكوب الشاي الذي سرعان ما هوى على الارض وتهشم لعشرات القطع الزجاجية.

أسرعت "أروى" بتجميع القطع المتناثرة فيما قمت أنا لإجابة الهاتف. خرجت إلى الردهة لأجيب على المكالمة، فوجدته متصلًا قد أخطأ الاتصال....عدت إلى غرفة المكتب...لأندهش مما رأيت.

وجدت أروى واقفة في وسط المكتب حاملةً بين يديها ذلك الشيء الذهبي...إنها ساعة جدي الذهبية!!

***

سألتني "أروى" في براءة:

– إيه دي يا أدهم؟؟ وأنا بجمع الإزاز المتكسر، لقيتها مرمية جنب المكتب في حته مش واضحة...دي شكلها ساعة دهب بجد!! عليها نقوش حلوة أوي ومكتوب عليها جملة كده مش عارفة أوضحها أوي...مكتوب" وما الحياة إلا.......إلا...."

أجبتها في دهشة: "رحلة...كلنا فيها مسافر!!"

ردت بدهشة مماثلة: "صح...عرفت منين؟!"

أجبتها: "دي ساعة جدي الله يرحمه...بس ازاي وصلت هنا؟"

أجابت في تلقائية: "ما دام بتاعة جدك يبقى أكيد هتبقى هنا في مكتبه.. بس حلو أوي الزرار اللي فيها دا...شكله مميز عن الساعة كلها" وأكملت جملتها بالضغط على ذلك الزر.

صرخت بها قائلا: " لأآآآآآآآآآ....."

اندهشت عندما صرخت بها كذلك...تلك كانت المرة الأولى التي أصرخ بها بتلك الطريقة وبدون سبب مقنع، فسألتني وقد تملكتها الصدمة:

– ايه يا أدهم! زعقت لي ليه؟؟

لم أستطع إجابتها بسبب عقلي الذي ازدحم بالأسئلة والاستفسارات. كيف لم تنتقل في الزمن بمجرد ضغطها للزر؟ هل تلك الساعة هي بالفعل ساعة جدي الذي طور آلة الزمن بها؟ لقد أكدت "أروى" ذلك بقرائتها لبيت الشعر المدون على ظهر الساعة، ولكن لماذا لم تنتقل؟ هل كانت مذكرات جدي كلها أوهام من صنع خياله ؟

أسرعت تجاه "أروى" وأخذت منها الساعة لأعاينها عن قرب، اندهشت "أروى" من أفعالي، وشرعت في سؤالي بعصبية بينما لم ألتفت لما تقول، فقد انشغلت بالفعل في معاينة الساعة. إنها نفس النقوش التي كتب عنها جدي في مذكراته، ونفس بيت الشعر المدون، وأزرار الساعة التي ترتبط بآلة الزمن بداخلها، كما أن التاريخ المضبوط بالساعة في خانة التاريخ لم يمت ليومنا بصلة فعلًا، وعقارب الساعة لم تشر لوقتنا الآن...ما هذا الذي أراه...واقع أم خيال؟ حقيقة أم وهم؟؟ شعرت بعقلي ينشطر نصفين من كثرة ما أعانيه الآن من التفكير.. وقطع تفكيري صياح "أروى":

– أدهم رد عليا!! أنت بتعمل كده ليه؟؟

أجبتها بهدوء: "من فضلك يا أروى...سيبيني دلوقتي لوحدي"

***

لم أدر كيف طلبت منها هذا الطلب، ولا كيف قلته بتلك الطريقة حتى "أروى" نفسها لم تصدق ما سمعت، ولكنها خرجت من الباب مسرعةً والدموع تتفجر من عينيها.

أمسكت بالساعة غير مصدق لما حدث سواء عثور "أروى" على الساعة بالصدفة البحتة أم ما قلته لـ"أروى" الآن. بعد دقائق استفقت من تلك الحالة التي غرقت فيها قليلًا، وانزعجت مما حدث، يجب أن أكلم "أروى" في الهاتف حالًا لأعتذر لها عن سوء تصرفي.

لقد أثبتت العلماء أنه لا وجود لما يسمى بآلة الزمن، وها هي "أروى" تثبت ذلك بالتجربة العملية.. لقد ضغطت زر الساعة فلم يحدث أي شيء أو يتغير ما حولنا قيد أنملة، لقد اندفعت وصدقت ما حدث لرغبتي في رؤية جدي الراحل ولو لمرة أخيرة، ولكن كلا.. لقد توفي جدي بالفعل...وما ذهب لن يأتي ثانية.

كنت قد هممت بطلب "أروى" على الهاتف، ولكن استوقفني تلك الخاطرة الأخيرة....ما ذهب لن يعود ثانية...تذكرت كلمات جدي في مذكراته...لقد وضع للآلة خطة استثنائية تجبرها على أن تعود للحاضر تلقائيا بعد ستين ساعة إذا لم يتم الانتقال يدويًا للحفاظ على التجربة من الوقوع في الأيدي الخاطئة بالماضي، وكذلك قال جدي: إن الساعة يتم شحنها بالطاقة من أجهزة المعمل الخاصة به.. فماذا لو أن الساعة قد نفذت الطاقة المخزنة بها، لذلك لم يحدث أي انتقال عندما ضغطت "أروى" على زر الانتقال.

بدأت ملامح الصورة تتجمع أمامي قليلًا.. هرعت لمذكرات جدي أقلبها في سرعة حتي وصلت لآخر صفحة وقرأتها في عجلة.

"قررت في رحلتي القادمة أن أسافر لزمن "الحجاج بن يوسف الثقفي"، ذلك الرجل الذي اختلفت فيه الآراء، فهناك من وصفه بالمبيد والسفاح لكثرة من قُتل في عصره ظلماً، ولجرائمه الشنعاء في حق المسلمين حتى وصل به الأمر لضرب الكعبة المشرفة بالمنجنيق، بينما يصفه البعض الآخرون بحافظ القرآن الكريم والقائد المؤمن الذي يبكي لسماع آيات الذكر الحكيم! إن هذا الرجل لشخصية معقدة بالفعل تحتاج أن أسافر لزمنه لأعلم عنه الحقيقة من أفواه أبناء شعبه وقتها"

انتهت الورقة الأخيرة من مذكرات جدي بتلك الكلمات..لا يوجد ذكر لما رأه في تلك الرحلة.

أخذتني الصاعقة عند وصولي لتلك النقطة، جدي ذهب للماضي في آخر رحلة من رحلاته العديدة، ولكنه لم يأتِ للحاضر! فقط الساعة هي التي تمكنت من العودة مرة أخرى بسبب خطة الحماية.

فقط الساعة!

جدي حُبس في الماضي.

جدي لم يمت.

جدي ما زال حيًّا!!

***

16

لم أحتمل هول المفاجأة تلك المرة، فقد فاق ذلك كل الحدود، كل ما قرأته بتلك الورقات في كفة، وما وصلت إليه الآن في كفة أخرى تمامًا.

أيُعقل أن يظل جدي حيًا وحيدًا في زمن آخر يسبق زمننا بمئات السنين؟!

وإذا صحت استنتاجاتي، فما الخطوة القادمة؟ ماذا بيدي أن أفعله لأعيده لحاضرنا؟

سيتطلب ذلك مني أن اعود لذلك الماضي لأنقذه مما يقابله من مصير غامض في ذلك العصر المظلم الذي وصفه جدي بورقته الأخيرة.

ارتميت على الفراش وفي يدي آخر ورقة كتبها جدي إنها تثبت ولا شك أنه لم يعد من رحلته، كما أن وجود الساعة مع علمي بتفاصيل الخطة الاستثنائية لإنقاذ الآله، كل ذلك يؤكد بالفعل صحة نظريتي.

جدي قد يكون حيًا ومعزولًا بالماضي، ويجب عليّ العودة لإنقاذه.

بعد أن اتخذت ذلك القرار، بدأت أجهز نفسي لما قد يحدث، سأحتاج أولّ الشحن الآلة بالطاقة، وهذا ما لم أكن قادرًا عليه لولا الاستعانه بإرشادات جدي في مذكراته، فلقد شرح الخطوات كاملة وكيفية استعمال الأدوات والأجهزة الخاصة بذلك، وأرفق شرحه بالرسوم الموضحة لكل خطوة، كأنك علمت بما سيحدث الآن يا جدي!

الآن أمامي تسعه أيام بالتمام والكمال لتكمل الآلة دورة شحنها، بدأت في الاستعداد شخصيًا لتلك الرحلة حسبما قال جدي في مذكراته، لقد كانت المعلومات هي اللبنة الأساسية لأي رحلة يقوم بها. اتجهت لمكتبة جدي الضخمة، محاولًا استخراج ما قد يلزمني من الكتب المتعلقة بفترة "الحجاج بن يوسف الثقفي" التاريخية.

خلال تلك الأيام التسعة، لم يشغل بالي سوى القراءة ثم القراءة ثم القراءة.. ومع كل كلمة تطالها يدي وتقرأها عيناي، يزداد فزعي وخوفي من تلك الفترة المظلمة بالفعل.

أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفي، القائد الأموي الذي استطاع بدهائه ومكره وخبرته الحربية أن يصل لتولي الإمارة على مكة والمدينة والطائف والعراق، ليبدأ في بسط نفوذه وسلطانه على تلك الأراضي ويخضعها لسيطرته بالرغم من وجود بعض القلاقل والثورات بالعراق وقتها.

علمت لماذا أختار جدي تلك الفترة بالذات لتكون مقصدًا لرحلة أخرى من رحلاته المكوكية في مجرى الزمن، فالحجاج لم يكن بالشخصية السهلة، وكان زمنه بالفعل مثيرًا للدهشة والفضول أيضًا. فبالرغم من شهرته بالمبيد والسفاح والسفاك التي اتفق عليها أغلب مؤرخي تاريخ المسلمين، إلا أنه اشتهر أيضًا بتعظيمه للقرآن، وعمل في بدايات شبابه محفظًا للقرآن والحديث للفتية والغلمان.

تأتي بعد ذلك حادثة رمي الكعبة بالمنجنيق أثناء حصاره لمكة وقتما حارب "عبد الله بن الزبير" بعدما طلب "عبد الملك بن مروان" أن يتم التخلص منه. تلك الحادثة ذكرها أغلب المؤرخين وأكدوها، بينما رد "ابن تيمية" على تلك الواقعة ودحضها – كما قرأت في مكتبه جدي– فذكر

في أحد كتبه قائلًا: "والحجاج بن يوسف كان مُعَظِّمًا للكعبة لم يرمها بمنجنيق".

ظلت شخصية الحجاج مثيرة للجدل حتي بعد وفاته.. فقد قرأت في أحد الكتب أنه أثناء احتضاره بمرض في إمعائه يشبه في أعراضه سرطان المعدة، أنه دعا الله وقال: "اللهم اغفر لي فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل". بعد ذلك وجدت في أحد كتب "ابن كثير" التي تمتلئ بها مكتبة جدي أنه قال فيه: "كان فيه شهامة عظيمة وفي سيفه رهق، وكان يغضب غضب الملوكِ، وكان جبارًا عنيدًا مقدامًا على سفك الدماء بأدنى شبهة، وقد روي عنه ألفاظ بشعة شنيعة ظاهرُها الكفر؛ فإن كان قد تاب منها وأقلع عنها وإلا فهو باقٍ في عهدها ولكن يخشى أنها رويت عنه بنوع من زيادة عليه، وكان يُكثر تلاوة القرآن ويتجنب المحارم، ولم يُشتهر عنه شيء من التلطخ بالفروج، وإن كان متسرعًا في سفك الدماء، فلا نُكفِّر الحجاج، ولا نمدحه ولا نسبُّه ونبغضه في الله بسبب تعديه على بعض حدود الله وأحكامه، وأمره إلى الله".

اكتسب كراهية الأتباع قبل الأعداء، فلقد كرهه الأمويون أنفسهم لأفعاله الشنعاء كحرب "ابن الزبير" وقتله إياه بعد النصر في مكة بخلاف العديد من القرارات الدموية التي اتخذها وقت إمارته التي قاربت العشرين عامًا. كما حقد عليه الخوارج لما فعله بهم من قتل وذبح، وكرهه الشيعة أيضًا لعدم احترامه آل البيت، فنسجوا حوله الأساطير والخوارق حتي قارنوه في وصفه بالشيطان نفسه!

اختتمت قراءاتي بالجملة التي ذكرها المؤرخ "ابن سعد" في كتابه "الطبقات الكبير"،فقال: "أن الحجاج قال واصفًا نفسه: "ما أعلم اليوم رجلًا على ظهر الأرض هو أجرأ على دم مني"!

أيُّ رجل كان ذلك الحجاج بالفعل؟!

أدعو الله أن أجدك سالماً يا جدي، فقد اشتقت إليك بالفعل وقد حان وقت اللقاء.

•••

تتابعت الأيام وانتهت المهلة المحددة لشحن الآلة، وحانت لحظة المعرفة. الآن سأرى اليقين بنفسي، لأدرك حقيقة مذكرات جدي، أكانت روايةً صادقةً لأحداث غريبة مرت بجدي، أم كانت أوهام الشيخوخة التي تصيب كل من هرم وشاخ وقارب عمره نهايته مثل جدي رحمه الله؟

راجعت قواعد السفر، واحتجت ما يقرب نصف يوم لتحقيق المعادلة الصحيحة التي تمكنني من التوصل للرقم المسلسل الخاص بالثقب الدودي الذي سأعبر من خلاله، استعنت بنصائح ومعادلات جدي التي استخرجتها من مذكراته القيمة، وأكملت الباقي بمعلوماتي القليلة الناتجة عن بعض قراءاتي في مجال الفيزياء عسي أن أكون قد وفقت في ذلك، وإلا سوف أضيع في فضاء الزمكان وأغدو ترابًا منثورًا.

وقفت في مكتب جدي حاملًا الساعة، مستعدًا لتلك الرحلة الغريبة، قمت بضبط رقم الثقب الدودي وتأكدت من جاهزيتي لما سيحدث. انتابني الخوف للحظة، وتمنيت لو أمكنني التراجع والاعتقاد بعبثية الفكرة والبعد عنها تمامًا، ولكني تذكرت سبب سفري، أنا مسافر لزمن آخر لأنقذ جدي، ولن أتواني عن تلك الفكرة أبدًا.

ضغطت زر النقل، لأشعر بذبذبات شديدة حولي، أغضمت عيني خوفًا مما قد يحدث ثم قررت ألا أغمضها، سوف أشاهد ما يحدث مدفوعًا بفضول عارم، وجدت المكان من حولي وقد بدأ في التلاشي، وأمامي الثقب الدودي ممتدًا في الفراغ يلتقمني كما التقم الحوت سيدنا "يونس" – عليه السلام– في أحشائه، يتلاشي الصوت والضوء من حولي ليبدأ في الانضغاط بجانبي ونمر جميعًا من ذلك الثقب! إحساس صعب بالتلاشي

والوجود في ذات الوقت، وكأن الهواء قد تلاشى هو الآخر، فانطبقت رئتي ومُنع عنها التنفس حتى إشعار آخر!

فجأة تقترب مني بقعه الضوء... أتجه إليها بتسارع شديد، ثم لا شيء سوى الارتطام بعنف على أرضية رملية حارقة.

أزيز من الآلة، ثم صمت رهيب.

لقد تم الانتقال بنجاح.

***

آلاف المطارق ترتطم برأسي من علٍ، وكأنني على ظهر سفينة في مهب الريح، لم أستطع الوقوف في البداية بسبب ذلك الغثيان الشنيع، تقيأت ثم أغمضت عيني لدقائق معدودة حاولت فيها استكشاف موقع انتقالي... الرمال الحارة تلهب يديي وذراعي، طقس حارق، والشمس تتوسط السماء.. إذن أنا في وقت الظهيرة.

بالنسبة للمكان والزمان، فأنا الآن في عصر "الحجاج بن يوسف الثقفي"، وبالتحديد في منتصف العام التسعين الهجري أو العام 709 بما يوافقه في التأريخ الميلادى. اختار جدي مدينة "واسط" التاريخية التي أنشأها "الحجاج" على الضفة الغربية لنهر دجلة وجعلها عاصمةً له في منطقة سواد العراق وقت أن كان واليًا على تلك البلاد.

انتقلت بواسطة الثقب الدودي التالي للثقب الذي استخدمه جدي، أي أنه متواجد بتلك المنطقة منذ ثلاثة أيام.. أرجو الله ألا يداهمني الوقت، وأستطيع العثور عليه حيًا قبل أن ينتهي وقتي أنا أيضًا.

استطعت تمالك نفسي قليلًا، وقفت منتصبًا بعد عناء شديد، نظرت حولي فلم أر إلا رمال الصحراء تحيطني من جميع الجهات، وفي الأفق تلوح

مدينة "واسط" بأسوارها العالية وبوابتها الضخمة، يلزم الوصول إلى تلك المدينة ما يقرب مسيرة النصف ساعة تحت شمس الصحراء المشتعلة. أرهقني قيظ الصحراء، فما إن وصلت إلى بوابة المدينة حتى هرعت لأقرب نخلة أستظل بها.

أثناء استظلالي بتلك النخلة اليابسة، أخذت في تأمل ما حولي، ما زلت مندهشًا مما أراه، فمنذ ما يقرب الساعة كنت بمنزلي بحي شبرا، وها أنا الآن بالعراق في زمن يسبق زمني بما يفوق الألف عام!

من حولي تنتشر الدكاكين والمباني القديمة أو الحديثة -إن صح القول- فأنا الآن في حاضرهم وليس بماضيّ، الدواب تسير بوسط السوق يقودها رجال وغلمان بملابسَ قماشية غريبة وعمائمَ مختلفة الألوان، وعلى مسافة بعيدة يتجول بعض الجنود بسيوفهم وخوذاتهم اللامعة تحت أشعة الشمس المتوهجة، تلتقط أذني العديد من الجمل من حوارات بين البائعين والزبائن، أو بين السائرين تجاهي، اللغه عربية لا شك في ذلك، ولكنها لهجه مختلفة تمامًا عن لهجاتنا المعاصرة، بل إنها تختلف قليلًا عن لهجات أهل الشام والعراق في وقتنا هذا. لهجات قديمة تمامًا، ولكني استطعت إدراكها بصعوبة، فليوفقني الله في ذلك وإلا سيكون الموت هو نصيبي.

بالطبع جذب اختلاف هيئتي وملابسي انتباه جميع من حولي، وبالرغم من حذري وارتدائي لملابس بسيطة حاولت ألا أظهر فيها الفرق الشاسع بين جودة أزيائنا وجودة أزياء الماضي، إلا أنني ما زلت غريبًا عنهم بملابسي تلك.

بعد أن استرحت قليلًا، بدأت في جولة البحث مسابقًا الزمن لكي أجد جدي خلال مهلة الستين ساعة المحددة لي قبل أن أعود لحاضرنا، سألت

أحد الباعة إذا شاهد شخصًا مختلفًا قليلًا خلال الأيام السابقة، أعتقد أنه لم يفهم طلبي في البداية، ولكنه بعد ذلك أجابني بالنفي، تركته ذاهبًا باتجاه أحد الباعة المجاورين لدكانه، ولكن الإجابة ظلت بالنفي. استغرقت مني عملية السؤال تلك ما يقرب من ساعتين، لأعود بعدها إلى النخلة التي اتكأت عليها جارًا خلفي أذيال الخيبة. لقد فشلت في إيجاد جدي..لم يراه أحد، ولم أستطيع معرفة موضعه في ذلك الزمان. بدأت في طرح الأسئلة على نفسي.. لماذا توقعت وجوده بتلك المدينة أساسا؟؟ ربما قد جاء إلى هنا وانتقل إلى مدينة أخرى خلال اليومين السابقين، ولكنني أبعدت تلك الفكرة عن خاطري، لأنه لو أراد الذهاب لمدينة أخرى لكان من الأولى – توفيرًا للوقت– أن ينتقل لتلك المدينة مباشرةً، ثم جال بذهني سؤال أثار تفكيري تلك المرة... لماذا اعتقدت أن جدي قد يثير الريبة بهيئته إذا انتقل لهذا الزمان؟ من المفترض أنه بعد خبرته الشديدة بالانتقال لأزمان أخرى، فقد استطاع التنكر بشكل ناجح كي يستطيع التكيف مع من حوله وبذلك يندمج بين المارة بدون أن يثير الشكوك.

أثارت تلك الفكرة هلعي، فأنا الآن لا أبحث عن شخص واحد يمكن تمييزه، بل إني أبحث عن شخص تتفق هيئته مع ما يقرب نصف أهل تلك المدينة، تملكني اليأس والحزن بعد أن توصلت لتلك النقطة... ها أنا قد سافرت في الزمن، ولكنني فشلت في العثور على جدي الحبيب.

***

ارتفع صوت الأذان من منتصف السوق معلنًا عن صلاة العصر، قمت من موضعي واتجهت إلى المسجد الذي بناه الحجاج. وصلت إليه فهالني عظمة بناء ذلك المسجد وضخامة حجمه، تأملت لبرهة روعة زخارفه

وجمال رسومه، قطع تأملي استعدادُ الناس للصلاة. وقفت بجانبهم وأعلن الإمام الصلاة.

انتهينا من أداء الصلاة... ليعقب الصلاة خطبة قصيرة تحدث فيها الإمام قليلًا، واختتمها بالدعاء للوالي "الحجاج"، وللخليفة " الوليد بن عبد الملك" سدّدَ الله خطواتهم وهداهم لما فيه خير الأمة.

خرجت بعد ذلك من المسجد، وأثناء عبوري لبوابة المسجد، وجدت من يستوقفني ويضع يده على كتفي الأيسر.. ارتعبت قليلًا والتفت لأنظر إليه وجدته رجلًا في الأربعين من عمره، طالت لحيته السوداء قليلًا حتى بداية صدره العريض، ويبدو من نظرات عينيه السوداوتين أنه ممن يتصفون باتقاد الذهن وحضوره، ألقي عليّ السلام ثم قال:

"كم أدهشني مظهرك وتأملك في نقوش مسجدنا "الجامع" بذهول واضح منذ أن خطت قدماك أبواب المسجد، أأنت غريبٌ عن تلك المدينة؟"

أجبته في قلق: "نعم.. لقد جئت من بلاد بعيدة كثيرًا عن مدينتكم"

ابتسم قائلًا: "إذن يجب عليك أن تحل ضيفًا لديّ، فنحن نكرم من يأتي لمدينتنا، خاصةً إذا كان غريبًا مثلك لا دار له ولا موضع".

حاولت التملص ولكني تذكرت عادات العرب قديمًا، وسلوكهم وكرمهم الشديد مع الضيف، فلم أستطع الجدال كثيرًا. سرت بجانبه متخذين الطريق إلى منزله بجوار سوق المدينة.

تملكني الفضول، فحاولت انتهاز تلك الفرصة وبدأت في الحوار معه، أخبرني أنه "المنصور بن مالك بن الحكم" أحد كبار تجار مدينة "واسط" لديه من البنين خمسة ومن البنات واحدة، يقطن بمنزله الذي بناه بنفسه

بجانب السوق ليكون قريبًا من محل عمله، يعمل "المنصور" في تجارة الأقمشة والملابس ويشتري أجود أنواع الحرير من بلاد الصين ليحيك منها أروع الأردية والجلابيب.

أخبرني كذلك بسبب تسمية مدينتهم باسم "واسط"، فعندما جاء "الحجاج" العراق وجد إدارة كل من مدينتي البصرة والكوفة مفصولة عن بعضها، لذلك كان عليه أن ينتقل في إقامته بينهما، فرأى من حسن إدارتهما أن يتخذ مكانًا وسطًا بين هاتين المدينتين يكون مقرًا لحكمه، يؤمن منه السيطرة الكاملة عليهما، ويشرف على أعمال سكانهما، فاختار موضع "واسط" وبنى مدينة فيه، وبذلك أصبحت مدينة "واسط" مركزًا إداريًا للإشراف على إدارة البصرة والكوفة.

أثناء سيرنا بالطريق، شاهدت في الأفق قصرًا عاليًا ذا قبة خضراء تلمع بشدة تحت ضوء الشمس الساطع، فسألته عن "الحجاج"، محاولًا معرفة حقيقته مستغلًا وجودي مع أحد رعيته، فتقطب جبيناه وبدأ في الحديث، قال في البداية:"بدون الوالي "الحجاج" لما صرت أنا بتلك المنزلة الرفيعة بمدينه واسط، فهو من أنشأ مدينتنا وأرسى قوانينها كما أرسى النظام بمدن العراق بأسرها، ولولا سياسته الحازمة في إقرار الأمن لما استطعنا أن نأمن على بضاعتنا أو قوافلنا، فلقد أمر حراسه بالضرب على أيدي اللصوص وقطاع الطرق، وحمى أهل مدينتنا من الأخطار والمنكرات، فأمر بقتل الكلاب الضالة، ومنع التبول أو التغوط في الأماكن العامة، ومنع بيع الخمور، وأمر بإهراق ما يوجد منها، وعندما قدم إلى العراق لم يكن لأنهاره جسور فأمر ببنائها، وأنشأ عدة صهاريج بالقرب من البصرة لتخزين مياه الأمطار وتجميعها لتوفير مياه الشرب لأهل المواسم والقوافل، ودعوات المسافرين تلاحقه بالهناء والثواب عند شربهم من ماء الآبار التي حفرها بالمناطق النائية لتوفير الماء لكل مسافر".

ثم أردف قائلًا: "وبالرغم من تدقيقه في اختيار ولاته وعماله، واهتمامه بأن يكونوا من ذوي القدرة والكفاءة، ويراقب أعمالهم، ويمنع تجاوزاتهم على الناس، إلا أن أحد قادة حرسه المسمّى بـ"شومان" هو أسوأ من يمكنه تقلد ذلك المنصب، فشغله الشاغل هو تطبيق النظام بكل غلظة وعنف، ولا يأبه لعواقب تطبيق النظام حتى إن أودى بحياة شخص مقابل ذلك، وللأسف، فإن "الحجاج" يوافقه أحيانًا كثيرة في أفعاله تلك، بل إنه أطلق يده ليفعل ما يشاء ما دامت أفعاله ينتج عنها مزيدًا من الحزم والانضباط.. الويل لمن يقع بقبضة "شومان"، وقتها يتمنى لو أنه ذهب للديماس مباشرةً بدلًامن مروره بـ"شومان".

قاطعت كلامه مستفسرًا عن "الديماس" الذي ذكره، فأجابني قائلًا: "الديماس هو ذلك السجن الذي أنشأه الحجاج بالجانب الغربي من مدينتنا.. هناك يحجز الخارجين على القانون ويتم استجوابهم بأبشع الطرق عقابًا لهم على سوء أفعالهم، وكثيرًا ما يتم إعدام أغلبهم بساحة المدينة ليكونوا عبرة لمن يعتبر".

ابتلعت ريقي بصعوبة، ثم سألني في اهتمام:

– وأنت أيها الغريب.. لم أعلم ما اسمك أو من أي بلاد بعيدة جئتنا؟

لم أعلم كيف أجبه! فقلت في اقتضاب: "أنا الأدهم بن عبد الرحمن.. جئتكم من مصر"

أجابني في بشاشة عندما سمعني أنطق باسم "مصر": مصر.. بلد حسن الموضع وحسن الأهل، سكانها أطياب المعشر، حدّثني كيف حالكم الآن؟"

شكرته على مدحه، وابتسمت في داخلي متخيلًا ردّ فعله إزاء ما سأقوله إذا رويت له ما نحن فيه الآن، فالتزمت الصمت قليلًا ثم أجبته:

"نحن في أطيب حال، وبالرغم من بعض القلاقل المتناوبة هنا وهناك، إلا أننا نتخطاها بإرادة المولى -عز وجل-"

أكّد على كلامي ودعا لنا بالخير والبركات. قررت أن أتأكد منه عن صحة ما روي عن قذف الكعبة بالمنجنيق بأوامر من "الحجاج" وقتما حاصر "ابن الزبير"....وقبل أن أطرح عليه سؤالي دخل علينا طفل صغير باسم الوجه يبدو على ملامحه أنه أحد أبناء "المنصور" بمجرد دخوله، ألقى علينا السلام، واتجه لوالده في شوق. أمسك به "المنصور" في حنان، وأجلسه على فخذه اليسرى، وبادر بكلامه قائلًا: "هذا ولدي "يزيد" آخر أبنائي وأقربهم لقلبي"، ثم أمره بمصافحتي، فصافحني في خوف كأي طفل صغير في مثل سنه، ابتسمت إليه وأجبت "المنصور" قائلًا: "بارك الله لك فيه وجعله ولدًا صالحًا كوالده".

شكرني "المنصور" ثم دعاني لتناول الطعام معه.. وبالفعل بعد دقائق، بدأ الخدم في إعداد مائدتنا بأشهى المأكولات وأطيب الأطعمة حلوة المذاق، استطعت تعرف بعض تلك الأطعمة وغاب عني معظمها، ولكني لا أنكر طيب طعمها بالفعل.

بعد أن انتهينا من تناول الطعام.. تذكرت السبب الرئيسي لمجيئي لذلك الزمان، فبدأت في سؤال "المنصور".

- لقد جئت هنا لأبحث عن جدي.. لقد أتاني خبر أنه جاء إلى مدينتكم في اليومين السابقين، ولكني أجهل موضعه الآن، ولقد سألت جميع من قابلت عنه فجاءني الجواب بالسلب، فهل يمكنك معاونتي في إيجاده؟"

أبدى "المنصور" ترحابًا شديدًا، وبدأ في سؤالي عن هيئة جدي ومظهره، فأجبت جميع تساؤلاته. طلب مني الانتظار للغد لكي يأتيني بالخبر

اليقين. اعتراني القلق، فتلك فترة طويلة للغاية بالنسبة لوقتي المحدود ولا يمكنني أن أضيع منه أكثر مما ضاع بالفعل.

اقترب المغيب، فوجدت "المنصور" وقد جاء ببعض الملابس التي طلب مني أن أرتديها على سبيل الهدية، لم أستطع إثناءه عن تلك الفكرة، واضطررت لقبولها في خجل شديد لكرمه الفائق. بعد أن انتهيت من ارتداء تلك الملابس لم أستطع التعرف على نفسي، فلقد صرت واحدًا من أهل المدينه بالفعل، وجدت بعدها "المنصور" يطلب مني طلبًا غريبًا، لقد طلب مني الخروج من المدينة الآن.. اندهشت لذلك أيما اندهاش، ولكنه أجابني في حرج شديد أن تلك هي التعليمات الأمنية للحجاج.. لا سماح لغريب بالمبيت بالمدينة ليلًا، وعلى أهل المدينة العودة ليلًا لداخل أسوار مدينتهم.

خرجت من المدينة بالفعل محملًا ببعض الزاد الذي أصرّ "المنصور" على إعطائي إياه أثناء مكوثي بالليل خارج المدينة. افترشت الخيمة التي أعطانيها "المنصور" راجيًا الله ألا تهاجمني دابة من دواب الصحراء أثناء استغراقي بالنوم.

***

مرت عليّ تلك الليلة الباردة بصعوبة.. كانت تلك ليلتي الأولى التي أبيت بها في ربوع الصحراء القاحلة، والأدهى من ذلك أنها كانت في زمان آخر لا يمت لحاضرنا بصلة. استيقظت في الصباح فوجدت المدينة قد فتحت أبوابها لاستقبال زائريها، فدخلت المدينة واتجهت ناحية السوق، ظللت أبحث عن دكان "المنصور" حتى وجدته بالفعل، ولكني وجدت بالدكان أحد غلمانه، فسألت عن سيده "المنصور" فأجابني أنه ما زال بمنزله.

تركت الدكان واتجهت للمنزل لإيجاد "المنصور" وسؤاله عمّا فعله بشأن إيجاد جدي المفقود، وفي طريقي وجدت على قارعة الطريق رجلًا بالغًا ينهر "يزيد بن المنصور"، وبدا وكأنه ينتوي أن ينهال عليه بالضرب. انتابني الغضب فاتجهت بسرعة إليه لأوقفه عمّا يفعل. أمسكت به من تلابيبه، فبدا الغضب الشديد على وجهه الذميم، وبدأ في التلفظ بقبيح القول تجاهي قبل أن أسأله عن سبب ما يفعل، حاول أن يلكمني في وجهي، تفاديت لكمته في سرعة، فبادرني بلكمة أخرى نالت مني تلك المرة.. ارتميت جانبًا وقد سالت الدماء من أنفي.. اتجهت له بكل غضب وبدأنا في تبادل الضربات، تجمع المارة وبدأوا في الصياح، فوجئت بعدها بالحراس وقد تدخلوا بيننا، وأمسك اثنان بكل منّا، ومن بعيد جاء رجل طويل القامة عريض الجبهة مرتديًا عمامة خضراء تغطي شعره الفاحم، ضخم، كثّ اللحية والشارب، وقد تمنطق خصره بحزام جلدي يتدلى منه سيفان على جانبيه، ويرتدي زيًا يشبه زي هؤلاء الحراس الذين يحيطون بنا.

بمجرد وصوله ساد الصمت وانتشر الرعب بين الواقفين، بل إني لا أكذب إن قلت أن الرعب قد طال الحراس أنفسهم...نظر إلينا ذلك الرجل في برود، واقترب مني لتظهر إصاباتي واضحة أمامه مختلطةً بدمائي التي انسالت من أنفي وجبهتي وفمي.

فتح فمه ليخرج صوته الأجش قائلًا: "من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟"

أجبته في رعب: "أنا غريب جئت هنا بحثًا عن أحد أفراد أسرتي، ووجدت ذلك الرجل ينهال بالضرب على طفل صغير. حاولت إيقافه فلكمني وأصابني بتلك الإصابات التي تراها بنفسك"

صمت قليلًا، ثم اتجه إلى لشخص الآخر وسأله نفس السؤال، فأجاب الآخر قائلًا:

"ذلك الطفل أراد اختطاف نعلي الذي تركته بجانبي، فوددت أن أنذب ذلك الشيطان الصغير على فعلته تلك"

أكمل الرجل الضخم نظرته الباردة تجاهنا، ثم أردف بجملة واحدة.

"اذهبوا بهم إلى "الديماس"...لا أسمح لأي انفلات أو خروج عن النظام أن يستشري في أرجاء مدينتنا"، ثم أكمل في غلظة: "فلتعلم أيها الغريب أن سيدي "شومان" سيستمتع بلقائك أيما استمتاع"، ثم ابتسم في جذل ومشى.

جاءت تلك الجملة لتنهي ما تبقي فيّ من وعي حاولت الحفاظ عليه بالرغم من إصاباتي الشديدة، فسقطت مغشيًا على رمال مدينة "واسط"، ليجرني الحراس إلى مصير مجهول في زنازين "الديماس".

***

17

ظل وعيي مستمرًا في الهروب من قدرتي على إمساكه والاحتفاظ به، مع كل متر أعبره تجاه خيول الحراس الذين جروني بكل غلظة يتثاقل جفناي، وأغمض عيني لثوانٍ ثم أفتحها فأجد نفسي ما زلت في قبضة هؤلاء الحراس. وصلنا للخيول فأمسكَتْ بي أيدي الحراس ليرفعوني ويلقوا بي على صهوة أحد الجياد.

بدأت تلك المجموعة في التحرك صوب سجن "الديماس"، وما إن ظهر أمام ناظري، شعرت بالرهبة الشديدة تجتاحني وتحركني بعنف، فهببت في وهن محاولًا التملص من ذلك الحارس الذي أمسك بي، قمت بدفعه من على الجواد بكل ما أوتيت من قوة وقتها، فوقع مخلفًا سحابة صغيرة من الغبار الذي تناثر من موضع وقوعه.

أمسكت بلجام الفرس الذي صرت أنا الآن قائده الوحيد. لم أدر ما أفعل فأنا لست خبيرًا بالفروسية كي أتمكن من السيطرة على ذلك الجواد، ألهمني خوفي وقتها أن أجذب اللجام بشدة لعله ينبِّه الجواد ويحمله على الهرب، ولكن أتت النتيجة عكسية فارتفعت أقدامه في الهواء عاليًا وألقى بي من فوق ظهره في عنف.

بمجرد ارتطامي بالأرض حاولت أن أفر من قبضة الحراس، ولكنهم أجادوا إحاطتي بالجياد وأغلقوا عليّ جميع منافذ الهروب بفعلتهم تلك. فسكنت على الرمال منتظرًا بطشهم بي والذي لم يطل انتظاري له، فلقد

سارعوا بالإمساك بي وبدءوا في ضربهم المبرح حتي فقدت الوعي مرة أخرى.

***

شاهدت نفسي في مكان لم أراه من قبل.. أرضه سوداء كاحلة، وقد انغرست بها الأوتاد التي تربطني بقيود حديدية من عنقي ويديّ. السماء حمراء قانية كالدماء الطازجة، وسحب زرقاء مكفهرة تلوح في الأفق. التفت إلى يميني وجدته هناك، بصراخه المستمر وانفعالاته الثائرة، إنه الهر "أدولف هتلر" شخصيًا، لم أتبين ما يقوله وقتها، ولكنه نظر إليّ بعيون نارية وأكمل خطابه الذي اتضح أنه منصب عليّ بالكامل.

أنا أحلم.. بالتأكيد أنا أحلم. ما ذلك المكان ومتى أخرج منه. وعلى بعد أمتار قريبة، وجدت جدي "جمال" يقترب مني في هدوء، حاولت أن أسرع إليه لأعود إلى كنفه مرة أخرى مثلما تعودت سابقًا، لكن منعتني قيودي من ذلك، صرخت في قوة مناديًا إياه، فابتسم ولم يرد.. استمر ندائي، فلم يجيبه إلا باستدارته وابتعاده عني بنفس الهدوء الذي جاء به.

تملكني اليأس...وحانت مني التفاته لـ"هتلر" الذي ما زال في خطابه العنيف، ثم وجدته قد صمت فجأة، ونظر في برود إلى تلك السماء الحمراء، فتجمعت السحب الزرقاء في سرعة غريبة، وبدأت قطرات من المطر الأسود تقطر من جوانب السماء.

هالني المنظر، وقطرات المطر تبدأ في الانحدار على جبهتي لتكمل طريقها إلى وجهي وتتسلل بعضها إلى شفتيّ..مذاقها كريه للغاية، أبصقها في عنف محاولًا إبعادها عنّ فمي، ولكن الأمطار تزيد من هطولها حتي صارت كالشلال المنهمر بلا رادع.

استفقت فجأة على سطلٍ من الماء وقد أُلقي على رأسي، هززت رأسي في عنف وفتحت عيني في ضعف لأبدأ في تبين ما حولي.

رفعت كفي لأمسح قطرات الماء المنسدلة على وجهي، فأوقفني ذلك القيد الذي ربط معصميّ معًا...حاولت فتح عينيّ عن آخرها لتوضيح رؤيتي...وجدت نفسي راكعًا على ركبتي وسط ثلة من الحراس الذين أحاطوا بي، وعلى رأسهم ذلك القائد ذو العمامة الخضراء الذي بدأ في التحدث قائلًا:

– تأدب أيها الغريب، فأنت في حضرة القائد "شومان".

ثم تحرك في أدب وخضوع مستقبلًا "شومان" الذي ظهر من خلفه ليستقبلني. نظرت إليه في البداية فوجدت رجلًا ضخمًا يماثل ذا العمامة الخضراء في ضخامته، وإن كان أشد بأسا وأكثر غلظة، جبهته ضيقة، أفطس الانف، ينسدل شاربه على جانبي وجهه ليتقابل مع لحيته المشعثة مكونةً ما يشبه كومة القش المحيطة بفمه الغليظ!

سأل "شومان" قائد الحرس في اقتضاب:

– من هذا؟

أجابه قائد الحرس في احترام بالغ:

– هذا أحد الغرباء من خارج مدينتنا، أمسكنا به محاولًا إثارة الشغب بجانب السوق الكبير، ووقت أن قبضنا عليه، حاول الهروب وتعدى على أحد جنودك المساكين.

صمت "شومان" لوهلة، ثم قال:

– ألقوا به في أقذر زنازين سجننا حيث يقبع أكثر المجرمين خسة ونذالة، فهذا جزاء من يخالف نظام والينا العظيم الذي أرساه في ربوع ولايته، ويهاجم جنوده المخلصين، وفي المساء أنظر بشأنه وأقضي عقوبته.

ثم أكمل: "واعدموا ذلك الجندي الذي سمح لذلك الغريب أن يعتدي عليه، فلا مكان عندي لضعيف".

ابتلع قائد الحرس ريقه بصعوبة، بينما نظرت إلى ذلك الجندي الذي أوقعته عن صهوة الجواد، فوجدت وجهه قد صار مثل الشمع في بياضه... أرعبتني فكرة إعدام ذلك الجندي بسببي، فصرخت مناديًا "شومان" الذي همّ بالرحيل:

– انتظر....لم يكن خطؤه...أنا من دفعه من على الجواد.

التفت "شومان" إليّ في عنف، ثم اقترب تجاهي حتى دنا وجهه من وجهي بشدة، ثم همس قائلًا:

– إذن، يجب إعدامه...فلقد جعل نفسه لقمةً سائغه لك.

ثم أنهي جملته بلكمة قوية كالها لوجهي أفقدتني الوعي للمرة الألف في ذلك اليوم المشؤوم، لتظلم الدنيا من حولي مرة أخرى.

استيقظت فزعًا لأجد نفسي مكومًا بجانب جدران إحدى الزنازين الضيقة للغاية، حتى إنني وجدت موضع جلوسي بصعوبة. قمت ببطء من مرقدي ونظرت حولي فلم أجد سوى بعض الرجال وقد افترش أغلبهم أرض الزنزانة الرطبة. المكان من حولي شديد الظلمة، سيِّئ التهوية، وبعد أن اتضحت لي الرؤية، استطعت تبين سبعة رجال، اختلفت أعمارهم وتفاوتت هيئاتهم ولكن جمعهم الضعف والهزال وسوء الصحة والحال.

اتجه إليّ أحدهم، وبدا على هيئته الكهولة الشديدة، سعل ثم سألني بعدها:

– من أنت؟

أجبته في حذر: "غريب... أُسِرت ظلمًا. ومن أنت؟ وأين أنا الآن؟"

صمت لبرهة.. ثم أجاب في أسًى:

– كلنا أُسِرنا ظلمًا.. أنا "أبو عبيد بن يوسف" كنت منذ سنة أعمل أجيرًا لدى أحد التجار بالسوق، وحدث أن لصًّا سرق بعضًا من بضاعة سيدي، فأودعت السجن ظلمًا. أقسم لك بالله أني لم أسرق تلك البضاعة، ولم يرحم حراس الحجاج توسلاتي وقتها، فألقوا بي في غياهب السجن هنا، وها أنا حتى الآن أسير تلك الجدران.

ثم نظر إلى باقي المساجين الذين جلس بعضهم ونام البعض الآخر، ثم أشار لشاب جالس وقال:

– أما هؤلاء فقد أتوا من بعدي.. ذاك الفتى هناك.. جاءوا به من أسبوع بسبب معارضته أحد أحكام "الحجاج" فألقي به هنا، وقد يتم إعدامه خلال الأيام القادمة.

أجبته في فزع: "إعدامه؟!"

رد عليّ "أبو عبيد": "بلى.. فعقوبة الخروج على الحاكم هنا هي الإعدام، ولكن ذلك الفتى تأخرت عقوبته لحين انتظار عودة "شومان" قائد الحرس بعد عودته إلى "واسط".

أخبرته بأن "شومان" قد جاء بالفعل، فقد رأيته بنفسي منذ قليل، فظهر الحزن على وجه "أبي عبيد"، ثم تمتم في خفوتٍ:

– إذن فتلك نهاية ذاك الفتى....يا للخسارة!

واسترسل في حديثه قائلًا:

– إن الحجاج لشيطان مريد –عليه لعائن الرحمن– قاسي القلب، بل إنه لا قلب له –رحمتك يا الله– منذ أن تولى الولاية، ودماء المسلمين تُسفك بيديه النجسة. تخطت أعداد ضحاياه الآلاف، وملأ أرجاء البلاد بجوره وظلمه، لقد أرسى حكمه بالشدة والغلظة، فلم يتورع عن سفك الدماء لتثبيت دعائم حكمه لنفسه ولأبنائه من بعده. لا يمكنني إنكار بنائه للمدن وإمدادها بالخدمات، ولكن في المقابل امتلأت سجونه بالمظلومين، وأريقت أنهار الدماء في عهده.

ذلك "الديماس" الذي نقبع بداخله الآن لهو أكبر دليل على ظلم "الحجاج" وشدته.. لقد سمعت الأهوال عنه قبل دخولي هنا..فقد قيل أن به الآلاف من الرجال والنساء أغلبهم سُجن ظلمًا أو بسبب أمور تافهة.

إعدام الأسرى هنا بقطع الرأس أو بالصلب بعد القتل، ولكن الحجاج اختص الصلب لأكبر معارضيه في الحكم والسلطة، وبخلاف تفنن الحجاج في ابتكار طرق تعذيب أسراه، فلقد تفنّن أيضًا في معاملة الأسري داخل "الديماس"... ففي بعض الزنازين تجد بعض الجماعات من المسجونين وقد اقترنوا في سلسلة واحدة، فإذا قاموا، قاموا معًا، وإذا قعدوا، قعدوا معًا، وبالرغم من صغر محبسهم، ففيه يأكلون، وفيه يتغوطون، وفيه يصلون. ومنذ أشهرٍ معدودات ألقى الحجاج بأحد معارضيه بزنزانة مجاورة لنا، وبعدها بأيامٍ أرسل عليه الكلاب تنهشه حتى مات، ولّما مات رمى بجثته في الخندق ولم يجرأ أحد أن يدفنه حتى مزّقته الكلاب.

صمت "أبو عبيد" قليلًا وبدأ في البكاء حتى سالت دموعه إلى لحيته البيضاء الكثة، ثم قال وسط بكائه:

– تلك الليلة سمعنا جميعًا أصوات الكلاب المفترسة تقطّع وتمزّق جثة ذلك الرجل، وصياحه المتواصل حتى سكت... سكت تمامًا... يا الله!!

***

بدأت في الارتعاش لما سمعته... كيف يفعل الإنسان ذلك بأخيه الإنسان، كيف يصل الحاكم لتلك الدرجة من الظلم والقسوة ضد رعيته...لم ينص الإسلام على ذلك أبدًا، وعلمت الآن بالفعل صدق الأقاويل التي تناثرت عن ظلم الحجاج وجبروته.

التفت إلى "أبي عبيد" واستفسر مني عن حال المدينة بالخارج، فأجبته آسفًا:

– إنني غريب عن هنا... جئت منذ يومٍ ونصف، ولا أعلم الكثير عن "واسط"، ولكن مما رأيته، فإن المدينة بحال جيدة، سوقها عامر بالبضائع وأهلها كثر ومسجدها عامر بالمصلين.

ابتسم "أبو عبيد" لأول مرة، ثم ردّ في هدوء:

– لا يغرنك حسن المظهر... فقد يبدو علينا السعادة والهناء ورواج الحال، لكنك لا تعلم ما يفعله الحجاج بنا، لقد قتل من شبابنا ونسائنا الكثير بعد أن اعترض بعضهم على ولايته، وأمر بقطع رقاب بعض الشيعة الذين جاءوا في رحلة تجارة منذ سنتين، منذ تلك الحادثة ولم تخط قدم شيعي أرض مدينتنا.

وتلك الدكاكين التي تراها بالسوق...أغلبها مضطر لبيع بضاعته وإن خسر بسببها، فالضرائب الباهظة التي فرضها الحجاج جعلت بعض التجار في حاجة لجمع مال الضريبة أكثر من حاجته لجمع رزقه، أما ذلك المسجد العامر بالمصلين، فإمامه من أكبر المنافقين للحجاج، يسدل غطاء الدين على

خطايا الحجاج، ويصوره في صورة الحاكم المؤمن الزاهد الحافظ لكتاب الله. إن تلك الأقوال التي تُذكر في حق الحجاج حول زهده وتقاه إنما هي كذب وتضليل، فكيف يفعل تلك الفظائع رجل مسلم بحق، لم يأمرنا النبيّ المصطفي –عليه صلوات الله وسلامه– بذلك.

استمر "أبو عبيد" في سرد فظائع الحجاج، وأنا غير مصدق لكمية الظلم التي قد يصل إليها الحاكم تجاه رعاياه.... يا الله!!

بعد أن انتهت حكايات الحجاج... التقط "أبو عبيد" من جانبه كسرة خبز قد اسودت أطرافها، وبدأ في ازدرادها في صمت، بدأت أنا في الحديث وأخبرته سبب مجيئي لمدينة "واسط"، ولكنني لم أشر من بعيد أو قريب لموضوع آلة الزمن، فبالرغم من حكمة ذلك الكهل ولكني لم أستطع إفشاء ذلك السر مهما حدث.

اهتم "أبو عبيد" بحديثي بشدة، وعندما ذكرت له أن جدي قد جاء للمدينة خلال الأيام السابقة، ظهر الانفعال واضحًا على وجهه، سألته في دهشة عن سبب انفعاله، فكانت إجابته التي ألقت بقلبي خارج ضلوعي:

– لقد أتى شيخ غريب منذ أيام إلى السجن، وقد ألقاه الحراس وقتها وقد سالت الدماء من وجهه وساقه...وخلال الفترة السابقة لم نسمع له صوتًا، فاعتقدنا أنه أبكم من كثرة صمته، يتلقى طعامه في سكون ويظل قابعًا في طرف الزنزانة طوال اليوم.

ثم أشار بإصبعه لأحد المساجين، وقال: "ها هو ذا".

اتجهت لذلك السجين بخطوات مرتعشة، أيعقل أن أقابل جدي أخيرًا؟

***

18

اقتربت بكل لهفةٍ وترقب تجاه ذلك السجين النائم بعيدًا عن باقي رفاقه السجناء، ثيابه رثة للغاية وتكسو الدماء رقعة كبيرة من تلك الثياب، فاستحال لونها للأحمر الداكن بعدما كانت بيضاء كما تبدو.

مددت أصابعي المرتعشة تجاهه، ومسست رأسه في رفق، تحرّك السجين مرتعبًا، ولكنه ما إن التفت إليّ ومن النظرة الأولى تأكدت ظنوني.. تلك العيون الداكنة...أميزها من بين آلاف العيون، وإن حلّ فيها الرعب والتعب بدلًا من الحنان والسعادة... إنه جدي!!

همست غير مصدق: "جدي!! أنا أدهم".

اتسعت عيناه وتمتمت شفتاه المتشققتان باسمي في صمت، ثم احتضنني في قوة ودموعنا تسيل بلا انقطاع. تحسس جدي بكفه وجهي وبدأت ملامح الفرح والسعادة تعود للظهور على وجهه. ذلك الوجه الذي لم يتغير فيه سوى بعض التجاعيد التي حفرها الزمن بكل قسوة، و بالرغم منها ظلّ محتفظًا بإصراره وعزيمته التي لا تكلّ.

ظللنا في ذلك التلاحم لدقائق عديدة، تمتم فيها جدي ببعض الكلمات المختلطة التي لم أستطيع تبيانها، ولكنني علمت مقصدها. إنه الشوق الذي يجتاح كلينا، اغتراب يفوق العشر سنوات، سدود وحواجز من الظلم بُنيت بيننا فمنعت كل منا من رؤية الآخر. كل ذلك انتهى في لحظة على أرض زنزانة باردة في زمنٍ يسبقنا بمئات السنين.

بدأ جسد جدي المرتجف في الهدوء، وإن كان ما زال مصدومًا من تواجدي في ذلك الزمان والمكان، ولكني أعلم بما يفكر الآن. بالتأكيد لقد توصل عقله لكل ما حدث، وهذا ما تأكدت منه بالفعل عندما بدأ بالتحدث بأولى كلماته لي منذ عشر سنوات.

– أدهم.... كنت عارف أنك هتوصل للسر، وتعرف كل اللي حصل لي... لكن يا ريتك كنت رحت أي زمن تاني غير الزمن دا.

أجبته واللهفة تجتاحني للحديث معه كالأيام الخوالي:

– أستاذ "عبد الله" جاب الصندوق وقريت فيه المذكرات، ومنها عرفت كل حاجة، ولقيت بعدها الساعة بالصدفة، ووقتها قررت أرجع لك تاني...بس ايه اللي حصل لك هنا يا جدي؟

هز جدي رأسه في بطء، ثم قال:

– هاحكي لك يا أدهم.

اعتدل جدي في مجلسه، وإن ظللنا في مبعد نسبي عن بقية المساجين الذين انشغل أغلبهم عنا بالنوم أو بالدعاء بفك كربته أو بالغرق في مستنقع يأسه الخاص.

***

بدأ جدي في الهمس قائلًا:

– أكيد أنت قريت في مذكراتي إني عملت رحلات كتير في مجرى الزمن، وعرفت اللي حصل لي فيها؟

أجبته بهز رأسي وأردفت:"أنا أنهيت قرايتي عند سفرك لزمن هتلر، وبعدها حصل لي ظروف منعتني من إكمال القراية، لحد ما لقيت الساعة

بالصدفة، ساعتها قريت آخر رحلة أنت عملتها لزمن الحجاج، ومنها وصلت لك هنا".

نظر جدي إلى سقف الزنزانة الحالكة في أسًى، ثم أكمل:

– للأسف... أنا السبب في مجيئك هنا.. كان لازم احرق مذكراتي، دي كان لازم أنا بس اللي أتوه في الماضي، أنت كنت لازم تعيش حياتك.

أنا بعد ما رجعت من زمن هتلر، سافرت كتير وكتير...كنت كل حوالي شهر أو شهرين أسافر لزمن مختلف عن التاني، حبي للتاريخ امتزج مع القدرات الرهيبة اللي سمحت لي بيها الآلة. إنك تقرا عن دخول الإسكندر الأكبر لمصر حاجة، وأنك تكون واقف وسط الجماهير الغفيرة اللي استقبلته حاجة تانية.

إنك تسمع مقطوعة لبيتهوفن في الراديو حاجة، وإنك تسمعها منه شخصيًا في حفل كبير مليان شخصيات معروفة وقتها حاجة تانية خالص.

إنك تقرأ في كتب المؤرخين المسلمين عن عظمة مملكة العرب في الأندلس حاجة، وإنك تتفسح في جناين "غرناطة" و"قرطبة" و"ملقة" حاجة تانية خالص.

التاريخ بالنسبة لي كان هدف مش غاية، أنا مسافرتش في الزمن علشان أسيطر على العالم، ولا علشان أجمع ثروات وتحف لا تقدر بثمن في حاضرنا. أنا شفت كل اللي افتكر نفسه قادر على أنه يسيطر على الدنيا، وفي الآخر كان كومة تراب... الاسكندر، نابليون، هتلر، وكتير وكتير من الزعماء... كلهم في الآخر نهايتهم واحدة، يا إما الفشل يا إما الموت زي بقية البشر وضياع مملكته اللي تعب فيها من بعده.

مع كل رحلة عملتها.. اتأكدت من خطر تغيير الزمن، الماضي اتسمى كده عشان مضى..راح، مينفعش يرجع تاني، وإن كان سفري ليه دا يعتبر رجوع، لكنه رجوع مقيد بقوانين صارمة مفيهاش هزار، أي تغيير ولو بسيط، بيبقى ليه آثار جانبية خطيرة ممكن تحطم مجرى الزمن تمامًا.

قبل ما أوصل هنا من أسبوع...كان المفروض إني مسافر للجزائر في زيارة لواحد زميلي من أيام زمان، وبالمرة أسافر بشكل طبيعي بدل سفري في الزمن، كان بقالي فترة بقرأ عن زمن "الحجاج بن يوسف الثقفي"، وشاغلني تاريخه جدًا.. وبالرغم من رحلاتي الكتيرة لتاريخ الحكام العرب والدول المتتابعة بعد عصر الخلافة، لكني مسافرتش قبل كده لعصر الحجاج، فقررت أسافر في رحلة سريعة، وأرجع بعدها للتحضير لرحلة الجزائر.

لكن زي مانتا شايف كده، طبعا الباخرة راحت عليّا، وفضلت محبوس هنا.

أجبته مبتسمًا: "الحمد لله...الباخرة غرقت ومحدش نجي منها، علشان كده أستاذ عبد الله افتكرك توفيت، وقام جايب لي دفتر مذكراتك بالصندوق المقفول"

اندهش جدي من ذلك الخبر، وتمتم في خفوت: "وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم.... سبحان الله!"

ثم أكمل في خوف: "لكن شكلي كده مكتوب لي الموت، بدل الموت في البحر هاموت على أيد سياف الحجاج"

سألت جدي عن سبب دخوله السجن، فطأطأ رأسه وبدأ في سرد قصة مجيئه لتلك الزنزانة المظلمة:

– أنا جيت هنا زي ما قلتلك علشان أشوف زمن الحجاج، كنت عاوز أعرف حقيقته... هل هو طاغية زي ما أغلب كتب التاريخ صورته، ولا حاكم عادل قدر يبني دولة محكمة قوية وثابتة لسنين طويلة؟ اخترت مدينة "واسط" اللي بناها بنفسه وخلاها عاصمة لولايته، وصلت في مكان قريب خارج أسوار المدينة، ودخلت وسط الناس وعشت وسطهم لمدة يومين من غير أي مشاكل. عرفت فعلًا حقيقة الحجاج، عرفت ظلمه واستبداده، وبالرغم من إنه قدر يبني دولة فعلًا قوية، لكنها كانت من جواها هشة للغاية، قوة الدولة مش في أمنها أو عملها أو تجارتها وصناعتها قوة الدولة في شعبها، والشعب كان كاره الحجاج، وأغلب مؤيديه من التجار المستغلين لأوضاع الدولة أو وزرائه وحاشيته وجنوده. الحجاج كان دايمًا خايف من المؤامرات، كان دايمًا بيفرض الأمن بالقوة، لكنه مقدرش في النهاية إنه يمنع قضاء الله.. مات بمرض في معدته زي أي إنسان عادي، ومن بعدها بدأت دولته في التساقط.

بعد ما عرفت الحقيقة خلال اليومين ونص اللي عشتهم في الزمن دا من غير أي مشاكل قررت أرجع قبل ما يحصل أي شيء يأثر عليّا. خرجت من بوابة المدينة ورجعت للمكان اللي اتنقلت منه للزمن دا، بس بسبب انشغالي في تشغيل الآلة، مأخدتش بالي من الجنود اللي كانوا راجعين خلال المنطقة دي للمدينة تاني.

طبعًا مشهد فتح البوابة الزمنية دا بالنسبة لأي حد من الزمن دا لازم يكون مرعب قبل ما ألحق أعبر من الثقب، لقيت سهم انغرس في رجلي اليمين؛ ارتميت على الأرض من الألم، واتحدفت الساعة من إيدي للرمل. هجم عليّا الجنود بسرعة، وقدروا يسيطروا عليّا بكل سهولة. لكن الحمد لله مفيش حد فيهم أخد باله من الساعة اللي غرقت وسط الرمل، افتكروني ساحر، وفي الزمن دا زي أغلب الأزمنة، السحر فيها مهنة محرمة

بيُعاقب عليها أي قانون.. فما بالك بقانون مستبد بيضاعف فيه العقاب على أي جاني!

وبكده اترميت في أسوأ زنازين سجن "الديماس"، ومنتظر عقوبتي اللي هيحددها "شومان" مدير السجن وأحد كبار مساعدي الحجاج شخصيًا.

قاطعته في قلق: "شومان رجع تاني للسجن من سفره"

صمتَ جدي للحظات، ثم قال في يأسٍ:

– تبقي دي نهايتنا.... الحجاج أعدم الآلاف لأسباب أتفه من أسبابنا دي.

ثم سألني جدي عن كيفية وصولي للسجن، فأجبته وسردت ما حدث منذ أن جئت إلى لمدينة، إلى أن وصلت للسجن.

سألني في لهفة:

– الساعة لسه معاك؟

هززت رأسي مؤكدًا، وأخرجتها من أحد جيوب سترتي الداخلية، بمجرد خروجها التمعت بضوء خافت سقط عليها من خارج الزنزانة، ارتعب جدي ودسّها بملابسي مرة أخرى.. لم ندرِ هل رأي أحدٌ غيرنا ذلك اللمعان، تلفتنا حولنا في خوفٍ فلم نجد أحدًا يتابعنا، كلٌ في عالمه الخاص هنا.

أشرق وجه جدي بمجرد رؤيته للساعه مرة أخرى، وأردف:

– تمام يا أدهم، حافظ عليها.. وربنا يفرجها يمكن نقدر نطلع من هنا...أو نفضل منتظرين الساعة تبدأ تفعّل خطة حمايتها بنفسها وتنقلنا للحاضر، أنت وصلت هنا من كام ساعة؟

لم أحسب الوقت بالفعل، ولكني حاولت استنتاجه. لقد قبعت بالمدينه حوالي يوم وبضع ساعات، ثم ألقوا بي هنا، ومكثت هنا أيضًا بضع ساعات.. إذن مجموع ما قضيته بذلك الزمن يقترب من إتمام اليومين خلال سويعات قليلة.

أجبت جدي في خفوت: "حوالي حاجة وتلاتين ساعة، لسه كتير على فترة الستين ساعة".

ردّ جدي في قلق: "لأ.... مفيش حاجة اسمها كتير. الوقت بيمر.. وكل دقيقة بتعدي بتقربنا أكتر وأكتر من الرجوع.. أهم حاجة نفضل عايشين ومحافظين على الساعة لحد ما يجي الوقت"

تمتمت بالدعاء... فليحفظنا الله برحمته.

***

مرت الساعات في بطء، وما زال السمر بيني وبين جدي الحبيب مستمرًا حتى بدأ الإرهاق في بسط قبضته على كلينا، فخلدنا للنوم أو على الأقل محاولة النوم.

استفقت على ملمس يد خائفة تتحسس ملابسي، وتحاول الوصول لجيوب ردائي تبًا... لقد رأى أحد السجناء الساعة وقت أن أخرجتها لجدي...وها هو الآن يحاول سرقتها مني.

تظاهرت بالنوم...ربما يفشل في الوصول إلى الساعة، وحاولت أن أضغط بذراعي بشكل طبيعي على مكمن الساعة لأمنع ذلك اللص من إمساكها. بعدها بلحظات... بدأت يداه في معرفة طريق الساعة بالفعل، هنا لم أستطيع إكمال تظاهري بالنوم، فقمت مسرعًا ممسكًا بذلك السجين من ملابسه، وكلت له لكمة أدمت فمه الذي يبس من طول فترة سجنه.

استيقظ جدي وَجِلًا بعد إحساسه بالجلبة الناتجة عمّا حدث، وكذلك فعل أغلب السجناء فقد خرج كل منهم من قوقعته ليجد سجينين يتعاركان بداخل تلك الزنزانة الضيقة. بدأ كلٌ منا في إشباع الآخر بلكماته، وحاول بعض السجناء بمعاونة جدي أن يفضوا ذلك العراك، فهتف ذلك السجين في قوة:

– هؤلاء الغرباء بحوذتهم الذهب... لقد رأيته بنفسي.

بهت وجهي أنا وجدي.. وبدأنا في القلق بعدما رأينا بعض السجناء قد ظهرت على وجوههم أمارات الجشع واضحة تمامًا. حاولت أن ابتعد أنا وجدي عنهم بأجسادنا، متخذين وضعًا دفاعيًا يائسًا لن يفيد أمام هولاء الوحوش الآدمية التي عززت مرارة الأسر بشاعتهم وعنفهم.

أنقذنا وقتها من ذلك الموقف بابُ الزنزانة الذي انفتح على مصراعه بقوة، ليدخل حارسانِ من حراس الحجاج ليذيقا كلٌ من بالزنزانة طعم عصيهم وقبضاتهم، ثم دلف بعدهم قائدهم ذو العمامة الخضراء وسأل عن سبب الجلبة، فأشار أحد الحراس تجاهي أنا وجدي وذلك اللص الذي حاول سرقة الساعة، فأصدر القائد أوامره بجلب ثلاثتنا للقاء "شومان".

اقتادنا الحراس بكل قسوة خلال ممرات وسراديب ضيقة، حتى وصلنا في النهاية لباب خشبي كان مدخلنا إلى غرفة "شومان" التي امتلأت بالسيوف وعديد من أدوات التعذيب الذي اقشعر بدني لمجرد رؤياها.

نظر إلينا "شومان" في غضب مستمعًا لكلماتِ ذي العمامة الخضراء الذي سرد ما فعلناه وبالغ في بعض الأفعال. بعد أن انتهى من كلامه تألقت عينا "شومان" في جذل، ثم قال بكل هدوء:

– لقد حان وقتكم أيها المجرمون، إن السياف ينتظر رقابكم على أحر من الجمر، وكم يشتاق نَصْلُ المُهَنَّدُ للارتواء بدمائكم الفاسدة.

ثم أنهى كلماته بجملةٍ جمدت الدم في عروقنا جميعًا.

– فلتأمروا السيّاف بالاستعداد... فسيتم إعدام هؤلاء في الفجر بعد ساعات.

19

ألقى بنا الحراس تلك المرة بكل عنف –بعد أن كَبَّلُوا أقدامنا وأيدينا بالأغلال– في زنزانة جديدة أضيق بكثير من سابقتها. ارتميت باكيًا على الأرض ادعو الله أن ينجينا مما فيه، وارتكن جدي برأسه على جدار الزنزانة في صمت، ودموعه الحارة تسيل على وجنتيه بينما ظل ذلك السجين الثالث منهمكًا في تمتماتٍ غاضبة تعبر عن صدمته الشديدة لما حدث.

مرت الدقائق وكأنها ساعات طوال، والساعات كالأيام، وبين الحين والآخر يتناهى لأسماعنا خطوات أحد الحراس خارج الزنزانة، فترتعش قلوبنا قبل أقدامنا، وقد تخيل كلٌ منا مصيره تحت نصل السيف، لكن ننتبه لكذب ذلك الإنذار، وأن تلك الأصوات ما هي إلا خطوات لحارس يتجول بين أرجاء السجن مراقبًا للزنازين.

غفا جدي والسجين قليلًا بعد ساعات طالت واستدامت، وظللت أنا في وحدتي متأملًا ما حدث منذ البداية وحتى ما وصلت إليه. تتابعت مشاهد من حياتي أمام ناظري، تارة مع جدي في فترة طفولتي، والتارة الأخري منصتًا لكلمات "أروى" التي تنساب من شفتيها الرقيقتين. أشاهد نفسي مع أصدقائي في تلك الليلة السعيدة التي قابلتهم بها، وأتذكر كلمات جدي التي دونها بين طيات مذكراته فأتت بي إلى هنا. الثقب الدودي يمتصني ويرسلني إلى زمن آخر وأرض أخرى، ذلك الثقب الذي

لن أراه مرة أخرى.. ماذا لو انتظر الزمن بضع ساعات؟ أما كنت أنا وجدي بمنزلنا القديم الآن؟ بضع ساعات فقط تفصلنا عن موعد فتح البوابة الاحتياطية التي ستنقلنا لحاضرنا، ولكنها سخرية القدر، نسافر في الزمن لمئات السنوات، ونعجز عن توفير ساعات قد تبعدنا عن قبضة الموت المحتم.. سبحان الله!

ظللت في تأملاتي ودعواتي، راجيًا أن يحدث ما لا نعلمه وينقذنا الله مما نعلمه، كلي إيمان بقدرة الله، وإن كان مصيري الموت في تلك البقعة من الأرض في ذلك الزمن الغابر عنا، فلتكن مشيئة الله. يكفيني رؤية جدي لمرة أخيرة قبل أن يلتهم نصل السيف عنقي.

بدأ صوت خطوات الحارس في الاقتراب، لم أتفاجأ منها، فتلك المرة الخامسة التي أسمع خطواته خلال ساعات، لكن تلك المرة استمر الصوت في الاقتراب حتى دنا من زنزانتنا... وتوقف!!

انفتح الباب فجأة، كاشفًا عن حارس من حراس السجن وقد ابتسم ابتسامةً عريضةً.

– حان الوقت.. لقد بزغ الفجر.

أغمضت عيني في قوة، ليته كان حلمًا، ليته كان خيالًا، لكنه للأسف واقع لا شك فيه.

اتجه الحارس وتبعه ثلاثة حراس آخرون دنا كل منهم من أحد المساجين، فأمسك به من قيوده وقام بدفعه للأمام لبدء التحرك نحو ساحة الإعدام.

خرجنا من الزنزانة يحيط بنا الحراس الأربعة عابرين ممرات وسراديب طويلة إلى أن توقف بنا قائد الحرس قائلًا:

– ادخلوا تلك الغرفة ستجدون أباريق مملوءة ببعض الماء، توضؤوا وصلّوا صلاة الفجر، تلك تعليمات مولانا الحجاج، وبدأوا في فك قيود أيدينا.

ابتسمت للحظة في سخرية.. يا له من حاكم مؤمن!!

بالفعل اتجه كلٌّ منا نحو إبريق وبدأنا في سكب الماء على وجوهنا وأذرعنا وأقدامنا. وبعد أن انتهينا من الوضوء، أشار إلينا الحارس باتجاه القبلة فبدأنا في الصلاة جماعةً خلف جدي.

أدى كلٌّ منّا الصلاة فانهمك فيها وكأنها بالفعل أخر صلاة لنا على وجه الأرض، خشعنا جميعًا خشوعًا حقيقيًّا وقد دعا كلٌّ منّا ربه في السجود حتى رغبنا ألا نقوم من تلك السجدة.

انتهينا من الصلاة، فاقتاد كل حارس منهم أحدنا مرة أخري وأكملنا طريقنا نحو ساحة المدينة حيث سيتم إعدام ثلاثتنا.

بمجرد خروجنا من تلك السراديب المتشعبة، ارتقينا لسطح الأرض وعبرنا لبوابة السجن، لترى عيناي الشمس لأول مرة منذ دخولي "الديماس" الشمس في بداية شروقها، في زمن لم تلوثه سحب العوادم أو يضطرب طقسه بسبب ما فعله الإنسان. شروق بكر وكأنه الشروق الأول للشمس عبر التاريخ أذهلني المشهد وأثار شجنًا غريبًا داخلي، فكما تبدأ حياة يوم جديد.. ها هي تنتهي حيوات ثلاث من المظلومين.

خطت أقدامنا بوابة السجن الكبرى، ليقتادنا الحراس إلى الساحة الكبرى التي تتوسط المدينة، وأثناء اقتيادنا ظلّ أهل المدينة يرمقونني في فضول، والبعض الآخر في غضبٍ وكأنه ينظر لمن قتل ابنه. تطوع أحدهم

ليكيل لأي منّا لكمةً عابرة، ولكن استطاع بعض الحراس الذين انضموا للحراس الأربعة السابقين أن يوقفوه قبل بلوغه إيانا.

تتلاقى عيناي مع عينيّ جدي في لحظات سريعة متقطعة، لألمح في وجهة الأمل.. يا ليتني كنت في نصف شجاعتك ورضاك يا جدي، تتحرك عيناي لا إراديًا لألمح في نظرة خاطفة وسط الجماهير وجه "المنصور"، انتبهت فرانصي بشدة فأعدت النظر، لأجد بدلًا منه شخصًا آخر، إنه مجرد وهم كاذب. انتابتني الحسرة وأطرقت رأسي مكملًا عبوري وسط الجماهير الغاضبة التي أكالت لنا السباب والصياح بلا داعٍ وبلا أدنى علم بسبب إعدامنا! إنها للأسف ثقافة القطيع، الجماهير الغفيرة تتحرك كفرد واحد في الأحداث الكبرى. وما يسري على شخصية الفرد الواحد يسري عليها وقتها.. يبدو أن الحكام الطغاة قد استطاعوا زرع تلك الصفة في جماهيرهم منذ قديم الزمان....يا للأسف!

إن المنصة التي سيتم إعدامنا عليها تقترب، وفوقها يقف السياف شاحذًا نصل سيفه... عفوك ورحمتك يا الله!!

***

اقتادنا الحراس وارتقينا المنصة في بطء، وكلٌّ منّا يرغب في الابتعاد عن حد السيف ولو بمقدار شعرة يبتعد بها عن الموت، وفي النهاية وصلنا لمستقرنا الأخير. السيف اللامع يعكس لمعانه على وجوهنا، وبعض الجماهير بدأت في الاستعداد لرؤية الدماء تتفجر من أعناقنا، فبدأ هؤلاء في الصياح لاستعجال السياف على تنفيذ الأوامر المعطاة له.

أَرْكَعَنا الحراسُ ووضع كل منا رقبته على ذلك الجزء المرتفع من المنصة حتي صارت رقابنا تحت سيطرة السياف، تنتظر كلمة البدء لينهال على رؤسنا بسيفه البتّار.

بدأ قائد الحرس ذو العمامة الخضراء في تلاوة أوامر الإعدام من رَقٍّ بسطه بكلتا يديه قائلًا:

"بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على نبيه العدنان. إنه في يوم العاشر من شهر رجب من العام الهجري التسعين، وبأوامر من حاكمنا العادل "الحجاج بن يوسف الثقفي" بناءًا على ما قام به هؤلاء المجرمين من إخلال بقواعد الولاية، واختراق لما أرساه حاكمنا من أوامر تحافظ على نظام الولاية وأمن شعبه فمارسوا الشغب ضد إخوانهم من أهل مدينتنا الغالية وأوقعوا بهم أكبر الضرر والأذى، تقرر إعدامهم بقطع الرقبة وصلب جثثهم خارج أسوار المدينة حتى تفسد أجسادهم ليكونوا عبرةً لمن لا يعتبر"

أنهى القائد كلماته، وأشار على السيّاف أن يبدأ بالتنفيذ.

اتجه السيّاف نحونا بزيِّه الأسود المهيب، وفي قبضتيه سيف عظيم شديد اللمعان. اقترب منّا حتى دنا من أولنا وكان ذلك اللص الذي لازمنا في الزنزانة، فصل بين كل منا مسافة تقدر بنصف متر تقريبًا. ولكني من موضعي استطعت سماع لهاث ذلك السجين، ورأيت دموعًا تنحدر من وجهه لتغرق سطح المنصة أسفله.

صياح الجماهير المهتاجة يتعالى، وضربات قلبي تتزايد حتى قاربت الوصول للانهائية، السيّاف يرفع كلا ذراعيه لأقصى ارتفاع ممكن، ثم يهبط بهما بكل قوة؛ ليقتلع السيف عنق زميلي من منبته في سرعة.

هالني المشهد وزلزل كياني في قوة.. مشهد الدماء المتفجرة والذي وصل منها القليل لجانب وجهي. ارتعبت مما حدث فصرخت صرخة عالية

ضاعت في بحر صيحات الجمع الغفير الذي حضر ذلك المشهد مستلذًا بشدةٍ مما رآه!

اقترب مني السياف....لقد جاء دوري. أراه بصعوبة بعيني اللتين امتلأتا بالدموع، الموت قادم على بعد خطوات مني. يمد يده ليمسك بيدي ويأخذني معه لظلمات قبر لا أدري ما إذا كان قطعة من جنة أم قطعه من جحيم، عزائي الوحيد أني سأموت قبل جدي، ولكن يحزنني لوعة جدي الذي سيرى رأس حفيده قد قُطعت ورُميت في الرمال كجيفة نتنة.

أرى جميع أحبابي في لحظات سريعة، أتمسك بإغماض عيني على ذلك المشهد الجميل ليكون آخر ما يبدر ببالي قبل الممات، أتمتم بالشهادة في خفوت.. منتظرًا الخلاص.

***

تتعالى صيحات الجماهير، ولكنها صيحات مختلفة تلك المرة، صيحات غاضبة بحق، صيحات يغلب عليها صوت الثورة..ضد من؟

يرتطم جسم ما بجانبي على أرضية المنصة، أفتح عيني في دهشة لأجده السياف وقد اخترقت جمجمته سهمًا طويلًا أودى بحياته على الفور، وأسال منه الدماء بدلًا مني، تفاجأت أيما مفاجأة مما حدث، نظرت حولي لأجد الجماهير تتسلق المنصة وتهاجم الحراس الذين هالهم المشهد وأخذتهم المفاجأة.. مفاجأة! إنها المعجزة.. لقد ثارت الجماهير!

وجدت أيادٍ تتلقفني وتسحبني في سرعة بعيدًا عن المنصة، لم أستطع تبين شخصياتهم، لم أبال بشيءٍ إلا جدي. نظرت نحوه لأجده مثلي يتم إبعاده بأقصى سرعة عن المنصة وإنزاله بعيدًا وسط الجماهير التي انفض تجمهرها،

وبدأ كل منهم في مهاجمة الحراس أو هدم تلك المنصة التي أريقت فوقها دماء الآلاف.

أوصلتني الأيادي برفقة جدي إلى بقعة مستترة خلف أحد الدكاكين؛ لأجد أمامي "المنصور بن مالك" نفسه واقفًا وقد ظهرت السعادة على وجهه، اندفع نحوي واحتضني في قوة قائلًا:

– أهلًا بك مرة أخرى أيها الغريب.

وأسرع إلى قيودي يفكها وبجانبه ولديه الذين جاوز كلا منهما سن المراهقة فصار شابًا يافعًا، وقد تناولا قيود جدي وبدأوا في فكها بسرعة.

ما زلت في دهشتي غير مصدق.. حاولت أن أسأله.. كيف حدث كل ما حدث؟

أجابني في سرعة:

– أعلم أنك مثقل بالأسئلة... لن يمكنني أجابتها الآن، فلقد حانت الحرب، كل ما أريدك أن تعرفه الآن أنني لست بتاجر قماش فقط، بل إنني أتزعم عددًا كبيرًا ممن يعارضون حكم الحجاج وظلمه واستبداده، ولقد حاولنا خلال شهور أن نثير القلاقل لزعزعه استقرار حكمه الأسود، ولكن دهاء الحجاج منعنا في كل مرة نحاول فيها حتى جاء حدث إعدامك، وفور علمي بما حدث لك بسبب ولدي "يزيد"، أقسمت ألا ينال سيف السياف من رقبتك.

نظرت له في امتنان قائلًا: "لن تتمكن كلماتي من إيفائك حقك بالفعل."

هزّ " المنصور" رأسه في احترام، ثم أردف:

– لا وقت نضيعه، ثم نادي أحد ولديه، فهرع الفتى سريعًا خلف الدكان، وأكمل "المنصور" كلامه:

– لقد أعددت لك جوادًا تقوده لتهرب به خارج أسوار المدينة، ولا تقلق.. فرجالي سيستكملون إثارة الجماهير ضد الحجاج. ادع لنا بالنصر.

علمت في سري حتمية فشلهم، فالحجاج سيكمل حكمه ضاربًا بجميع الثورات والقلاقل عُرض الحائط إلى أن يتوفاه الله بعد خمس سنوات من ذلك العصر، لكنني هززت رأسي مصدقًا كلامه في صمت.

أتى الفتى بالجياد وعليه سرج جاهز للركوب، فسألني "المنصور": "أسرع بالهرب، وسأشتت انتباه الحرس عنك"

نظرت لجدي في رعب.. فأنا لا أجيد ركوب الجياد، كأن جدي فهم ما تعنيه نظرتي، فابتسم في سرعة قائلًا:

– أنا بعرف أركب الحصان يا أدهم، رحلاتي علمتني الكتير.

وأتبع جملته بالركوب بكل براعة على صهوة الجواد، فأتبعته وقفزت مثله معتليًا الجواد، وبدأ جدي في الإسراع نحو بوابة المدينة متفاديًا في صعوبة أجسام الجماهير الحاشدة بساحة المدينة.

رأيت "المنصور" مقاتلًا لثُلة من الحراس الذين تكاتفوا عليه حتى قام أحدهم بإغماد سيفه في صدره بالكامل. انتابني حالة من الحزن صرخت من جرائها، فلفتت انتباه هؤلاء الحرس الذين سارع ثلاثة منهم في اتباعنا بالركوب على جيادهم.

أخبرت جدي بضرورة الإسراع هربًا من هؤلاء الحراس الذين يتعقبونا كظلنا بالرغم من كل مناوشاتنا وسط الجماهير، عبرنا بوابة المدينة بعدها بدقائق وما زال الحراس الثلاثة في أعقابنا.. سألني جدي في قلق:

– لسه الحراس ورانا؟ أجبته بالإيجاب، فسألني مرة أخرى:

– أنتا مكان بوابتك فين؟ جاء ردي سريعًا: – ناحية الجنوب باتجاه التل اللي هناك.

اتجه جدي نحو تلك التلة وقام بحثّ الجواد على الإسراع. ظللنا في طريقنا لدقائق معدودات، والحراس ما زالوا على مقربة منّا.. التل يقترب، وكذلك الحراس المصرون أشد إصرار على اللحاق بنا والنيلِ منّا.

***

وصلنا إلى التل أخيرًا.. ليهبط كلانا عن صهوة الحصان، أسرعت باخراج الساعة من ردائي وأعطيتها لجدي في سرعةٍ مرفقًا بذلك كلامي:

– أبدأ في فتح البوابة وأنا هحاول تعطيلهم.

ردّ جدي في قوة:

– ازاي؟ دول تلاتة وأنت لوحدك.

أجبته في قلق: "أكيد هنلاقي سلاح في سرج الحصان دا" واتجهت بالفعل نحو السرج أبحث عمّا ينقذنا، فوجدته رابضًا، ذلك السيف الموضوع في غمده ينتظر من يخرجه، أمسكت به في قوة، إنها المرة الأولى التي أحمل فيها سلاحًا... وها قد جاء وقتها.

اقترب الحراس منّا حتى صارت بيننا أمتار معدودة، ترجّلُوا من على صهوة خيولهم، ودنا ثلاثتهم منّا، وقد أمسك كلٌ منهم بسيفه مستعدًا لقتالي، أيقنت عدم جدوى قتالهم، فسألت جدي في سرعة وخفوتٍ:

– فاضل كتير؟

أجابني: "خلاص ثواني".

تفتقت عن ذهني فكرة سريعة قد تنقذنا. حاولت إظهار التماسك والشجاعة، وصحت بصوت عالٍ:

– قفوا أماكنكم.

بدا على وجه الحراس الثلاثة عدم التصديق، فكيف يطالبهم فرد واحد مثلي ومعه كهل أشيب لا حول لهم ولا قوة بالوقوف وهم حاملو السلاح المدربون على استعماله أفضل تدريب؟!

ظهر الذهول لثوانٍ على وجوههم، ولكنه سرعان ما ذهب ليكملوا اقترابهم مني، فأكملت كلامي في قوة:

– إنكم لا تعلمون من هذا العجوز الواقف بجانبي، إنه لساحر عظيم بتعاويذه السوداء سيستدعي أنفارًا من الجان والمردة لترمي بكم في غياهب الجحيم المستعرة.

لم أنتهِ من كلامي حتى انفتحت البوابة بالفعل، وبدأ الثقب في التكون في الفراغ أمامنا. اقترن ذلك المشهد المرعب للحراس بكلماتي التي أثارت خيالهم، فكان للحَدَثين معًا وقع السحر تمامًا على نفوسهم. بدأ ثلاثتهم في الابتعاد وقد تملكهم الخوف، وكل منهم يُمنّي نفسه بالهرب.

أسرع جدي بالمرور عبر الثقب، وعندما تأكدت من ابتعادهم بقدر يمنعهم من الرجوع مرة أخرى، قمت بالعبور أنا الآخر ليبتلعني الثقب في ظلامه المحبب لنفسي. الآن... أنا عائد إلى زمننا أخيرًا!!

***

تتابع الضياء والإظلام من حولنا، وذلك الإحساس الشنيع بالانضغاط وانتهاء الأنفاس، ثم العودة السريعة لغرفة مكتب جدي القديم.

تملكني شعور الإعياء لدقائق، فاستندت على جانب المكتب محاولًا التماسك، وبالفعل استطعت منع نفسي من التقيؤ مرة أخرى. نظر إليّ جدي الذي وقف في ارتياحٍ وعيونه تنظر لجوانب الغرفة في شوقٍ ولهفة:

– متقلقش....مع الوقت هتتعود زي ما أنا اتعودت على أعراض السفر دي.

مرت دقائق بطيئة، استعدت بعدها قدرتي على الوقوف بكامل إرادتي. تنفست الصُعَدَاء لوصولنا للحاضر، ثم نظرت لجدي نظرة طويلة، احتضنته بعدها في سعادة.

ثم توقفت للحظة مستعيدًا ما قاله منذ قليل:

– مع الوقت اتعود؟ ازاي؟ هو فيه رحلات تاني؟

نظر إليّ جدي نظرة مليئة بمعانٍ واضحة، ثم ابتسم في صمت!

النهاية

"أو مجرد بداية أخرى"...